

كتابي
خطايا الحب
وكتب أخرى
حلمي مراد
٨ كتب
٨ قروش

خطايا الحب

وكتب أخرى

كتب للمحرر

عندما تحب المرأة (مجموعة قصص مصرية) الناشر **« كتب للجميع »**

أوسكار وايلد (حياته ، وفنه ، ومأساته) الناشر **« البـــلاغ »**

قلوب تحترق أو (حذار من الشفقة) لستيفان زفايج الناشر **« روايات الهلال »**

أنا كارنينا لتولستوى الناشر **« روايات الهلال »**

رسول القيصر (ميشيل ستروجوف) لجول فيرن الناشر **« روايات الهلال »**

ذات الرداء الأبيض لويلكى كولنز الناشر **« روايات الهلال »**

مصطفى كمال (لم ينشر بعد) الناشر **« كتاب الهـلال »**

دافيد كوبرفيلد (لم ينشر بعد) لتشارلس ديكنز الناشر **« روايات الهلال »**

أوجينى جرانديه (لم ينشر بعد) لبلزاك الناشر **« روايات الهلال »**

ابن بورتوس (لم ينشر بعد) لالكسندر ديماس الناشر **« روايات الهلال »**

كاتالينا (لم ينشر بعد) لسومرست موم الناشر **« روايات الهلال »**

قصص وفصول ثقافية للمحرر

مجموعات مجلات وصحف : الهلال ، المصور ، الاثنين ، الكواكب ، مسامرات الجيب ، البـلاغ ، الكتلة ، الرسالة ، الثقـافة ، الراديو المصرى ، الحديث (دمشـق)

كتابى

كتاب شهرى للقصة والثقافة الرفيعة

صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

المكاتبات : ١٨ شارع العباسيين ، مصر الجديدة ـ ت ٦٥٦٠٨

الاشتراكات : عن ١٢ عددا : مصر والسودان : ٨٠ قرشا . سوريا ولبنان : ١١ ليرة سورية أو لبنانية . الحجاز والعراق والأردن : ١١٠ قروش صاغ .

الكتاب الأول : مارس ١٩٥٢

رمز الكتاب : شعلة الفكر عند الاغريق

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

هذا الكتاب ...

عزيزى القارىء ...

دعنا نتبادل حديثا صريحا خالصا ، لعلك لم تالفه من سواى .. عندما فكرت فى تنفيذ هذا المشروع الذى يلح على ذهنى منذ سنوات ، قيل لى من كثيرين ان مشروعا فى هـذا المستوى الرفيع الأنيق الذى تلمسه بين يديك ، لن يلقى منـك التعـويض الكافى عمـا بذل فيـه من جهـد ومال ، سـيما وهو لا يخوض فى السياسة ، ولا فى سيرة زيد أو عبيد من الناس ، ولا يقدم لك أنباء المجتمعات وأحاديثها وصورها .. الى آخر المواد الصحفية التى اتهموك ـ ظلما فيما أعتقد ـ بانك لا تحب سواها ، ولا تقبل على سواها ..

لكنى كنت وما زلت أومن بان فى مصر ـ وشقيقاتها العربية ـ قراء يفضلون السمين على التافه الغث ، والأدب على السياسة ـ ولو أنى لن اقدم لك أدبا جافا جامدا ، ولن أحرمك من « السياسة » فى صورة قصص حيـاة رجالها وأقطابها العالميين ـ كما سترى عند تصفحك لهذا العدد الذى بين يديك ... وانمـا أنا أعتزم أن أقدم اليـك بعون الله فى كل عدد مادة منوعة تجعلك على اتصال دائم بالحركة الفكرية فى العالم ، الجديد والقديم ، وباحدث ثمرات العقـول والأذهان ، فى نفس الوقت الذى تكفـل لك فيه المتعـة والتسلية ، وانفاق وقت الفراغ فى مطالعات تجعل منك مواطنا صالحا ، ومحدثا جذابا ، ورب أسرة واسـع الأفق ، وصاحب عمـل غزير الثقافة رحب التفكير ...

ولما كنا فى عصر السرعة ، ووقتك قد لا يتسع لمتابعة ومطالعة أحدث الكتب الشائقة والقصص العالمية فى طبعاتها الطويلة ولغاتها الأصلية ، فضلا عن التراث القديم من الكتب التى طالما سمعت عنها ولم تسنح لك من قبل فرصة قراءتها .. لذلك رأيت أن أتولى عنك هذه المهمة فأنتقى لك كل شهر من بين آلاف الكتب ، القصصية وغير القصصية ، ثمانية من أروعها وأمتعها ، الخصها واقدمها لك بالطريقـة والأسلوب اللذين تعودتهما منى ، والاخراج العصرى الذى يخاطب فيك الحس المرهف والذوق الجميل ..

وهكذا سوف تجد فى « كتابى » القصة المصرية الراقية ، الى جانب روائع القصص العالمى ، ودرر المسرح الخالدة ، وقصص المحاكمات الكبرى ، فى الماضى والحاضر ، ومآسى التاريخ الشائقة ، وقصص عظماء الانسانية فى حياتهم العامة والخاصة ، وأحدث كتب علم النفس العملى المبسـط ، وغوامض القصص

البوليسى ، وكنوز الكتب القديمة ، الأجنبية والعربية .. الى آخر هذه السياحة الفكرية الممتعة ، فى جميع البلاد والعصور ، التى سأبذل لك فيها ثمرة اطلاعى الدائب طيلة أكثر من خمسة عشر عاما .. بحيث تكون لك منها بعون الله أمتع مكتبة قصصية أخرجتها المطابع العربية .

عزيزى القارىء :

انك قد تقلب صفحات هذا الكتاب ، فتقول فى نقده أو اطرائه بضع كلمات ، ثم تقرأه أو تلقيه جانبا ، تبعا لرأيك فيه .. لكنك لن تقدر مدى الجهد والأعصاب التى بذلت فى اعداده لك على هذا النحو : فى انتقاء كل موضوع من موضوعاته ، وفى اختصاره وضغطه فى هذا الحيز الضيق ـ اذا قورن بالأصل ـ وفى صياغة كل عبارة منه فى أسلوب يهضمه ، فيما أرجو ، كل قارىء من قراء العربية ، أيا كانت ثقافته ، وسنه ، وجنسه ، وجنسيته ، وذوقه ومزاجه ... ثم المجهود الذى بذل فى اختيار فكرة كل رسم من رسومه ، وتنفيذها ، والمفاضلة بين رسم ورسم ، وقصة وقصة .. واختيار شكل الكتاب ، وحجمه ، وعنوانه ، وتصميم غلافه وألوانه .. ناهيك بالمشقة الكبرى التى تفوق كل ذلك ، وأعنى بها مشقة مواجهة مشكلات ـ واحتمال نفقات ـ الطبع والورق ، فى هذه الأيام !.. هذا الى عشرات المتاعب الأخرى المتفرعة عن كل مشكلة من هذه المشكلات ، والتى ينوء بها كاهل أية دار من دور النشر الكبرى ، فما بالك بفرد لا يملك دارا ، ولا مالا .. لا يملك الا فكرة وعزيمة وايمانا !؟

لست أريد من تذكيرك بكل هذا العناء أن أمن عليك بما بذلت لك من نفسى وجهدى ، راضيا مختارا ، وانما كل الذى أريده منك أن تكون واسع الصدر فى استقبالك لهذا المشروع الجديد ، فتتقبل ما قد لا يعجبك فيه ، وتنبهنى اليه ، بروح التسامح والصبر .. فما هو الا وليدا يحبو فى أول الطريق ، والطريق طويل وشاق ، ومحفوف بالعقبات والأشواك ..

وحسبى أن تعلم أن نجاح هذا المشروع ، أو فشله ـ لا قدر الله ـ لن يكون نجاحا أو فشلا لمجلة أو كتاب ، بقدر ما سيكون نجاحا أو فشلا لفكرة .. وعزيمة .. وايمان !

حلمى مراد


الغفران
قصة مصرية
للمحرر

يا ابنتى ... دعى المكابرة جانبـا وتعالى فأريحى رأسك المتعب على صدرى ، واطلقى العنان لدمعك الحبيس ، فقد يريحك البكاء من بعض همك ... أو ان شئت فأفرغى شجنك المرير فى سمعى ، فليس اقدر على حمل متاعبك من هذا القلب الذى طالما استعذبت النعاس ــ وأنت طفلة ــ على خفقاته ... وطالما أسندت اليه حين غدوت صبية رأسك الصغير ، شاكية أو باكيــة ، كلما صادفك فى دنيـاك الساذجة هم تافه ... فلما كبرت ، وكبرت معك همومك ، ظل هــذا القلب الحانى ملجـأك وملاذك ، تهرعين اليه لتلتمسى عنده النصـيحة كلما أشفقت من أن يفسد عليك أمرك حنان أمك الزائد وتقديرها العاطفى للأمور ...

فلماذا تهجرين الآن ملجأك القديم ، وتضنين عليه بالشكوى بين الحين والحين ؟... ألأنك صرت زوجة ، يخجلها ــ وكم للطبيعة من أعاجيب ! ــ أن تكاشف أباها الذى ألفته دهرا ، بالنذراليسيرمما تكاشف بهزوجها،الغريبعن حياتهاوماضيها؟

أم أن غصتك التى تبلل الساعة عينيك ، هى بعينها التى تجفف حلقك ... وتعتقل لسانك ؟

على رسلك اذن ... ولكن لا أقل من أن تدعى دمعك ينهمر غزيرا ، عسى أن يجرف معــه الأشواك الصـغيرة التى نبتت فى حياتك . لا تسألينى كيف وقفت على أمر هذه الأشواك التى لم تبوحى بسرها لمخلوق !.. قد اكون تحسستها فى نبرات صوتك ونظرات عينيك وانت تزعمين لى انك جئت تقضين أياما فى بيتى ــ بيتك القــديم ــ لأن زوجك متغيب فى سـفرة قد تطول ، ولانك خشيت أن تبقى فى المسكن الفسيح مع طفلك الرضيع وحدكما أثناء غيابه ..!

أو قد أكون ارتبت فى الأمر حين لمحت فى انحناءتك على صغيرك ، تلك اللهفة المجنونة التى تفيض من قلب الأم نحو طفلها « اليتيم » من حنان الأب .. سواء كان يتمه لموت أو فراق بين أحياء ..!

أو لعل الذى وشى بأمرك لى ، منذ دخلت ، هذا الانكسار البادى على أجفانك ، والذبول الذى يطل من عينيك .. فقد قرأت فيهما من أول وهلة ــ بوعى قلب الأب المرهف ــ أنك وزوجك على غير وفاق ، وأن فى حياته ... امرأة أخرى !

لا تمارى ، فلن يجديك انكار ... ولست بأول امرأة يخونها زوجها ، ولن تكونى الأخيرة ، ما بقى فى الدنيا شباب وما بقيت فى الشباب غواية وحماقة ، وكبرياء وعناد !.. بل دعينى أصارحك بأنى قد لمحت بوادر هذه النتيجة منذ زمن ، وتوقعتها مشفقا ، بقلب واجف ... لكنى لم أشأ أن أفتح عينيك وبصيرتك على بعض الحقائق المريرة فى دنيانا ، خشية أن أبذر الشقاق بينكما بدلا من أن أمنعه ، وأعجل بالأزمة من فرط حرصى على تلافيها ..!

أما الآن ، وقد وقعت الواقعة ، فدعينى آخذ بيدك فى مزالق هذه المرحلة الخطرة من حياتك الزوجية ، فأبصرك ببعض حقائق الحياة التى تغيب عن فطنة أكثر زوجاتنا المدللات ــ واغفرى لى هذا الوصف فلست أقصد به أن ألومك ، أو بالأحرى ألوم نفسى وألوم أمك .. لأننا ــ نحن الآباء أو الأمهات العاطفيين ــ حين لا ترزقنا الأقدار بغير ابنة واحدة ، وحيدة ، لا تكون لنا فى الغالب حيلة فى تدليلها واغداق حبنا كله عليها بسخاء ، مهما بصرتنا عقولنا أو ثقافتنا بسوء عاقبة هذا التدليل !

● **وأهم** ما يعنيك الآن يا ابنتى من هذه الحقائق التى أود أن أبصرك بها : حقيقة واحدة موجعة ، أزلية خالدة ، لو وعيتهـا جيدا لاستطعت أن تفهمى على ضوئها نفسية الرجال جميعا ـ ولن يشذ عنا زوجك بطبيعة الحال !.. وهذه الحقيقة التى طالما أعماك عن تدبرها فى حينها فرط ثقتك فى حب زوجك لك ، هى أن جرثومة الخيانة الزوجية توجد فى قلوبنا جميعا ، نحن الرجال ، فى كل زمان ومكان .. مثل جرثومة « السل » سواء بسواء ! فكما تعيش الأخيرة كامنة فى جسم كل انسان ، عزلاء من كل قدرة على الظهور أو الايذاء ، حتى اذا ما ضعف الجسم يوما ، لسبب من الأسباب ، خرجت من مكمنها ، ونشطت ، وفتكت ! كذلك جرثومة الخيانة ، تعيش كامنة فى قلوب كل الأزواج ، عاجزة عن النشاط والتكاثر ، متخفية عن العيـون جميعا ، بما فيها عينى الشخص نفسه أحيانا .. فلا تستطيع الانطلاق من مكمنها والتغلب على مقاومتنا الا اذا فتحت لها ثغرة فى حصون دفاعنا .. فعندئذ ، وعندئذ فقط ، يعجز أكرم الأزواج وأنبلهم عن الصمود فى وجه الاغراء !

وفى أغلب الحالات لا تكون اليد التى تفتح هـذه الثغرة الحاسمة يد أجنبية عن البيت ، بل يد ربة البيت ذاتهـا .. يد الزوجة الحمقـاء !

والحماقة يا ابنتى حرباء لعينة متلونة ، ذات ألف وجه ، يحلو لها دائما أن ترتدى أثوابا تنكرية زاهية ، مضللة ، تظهرها فى مظهر الفضيلة المشروعة ، وهى الرذيلة بعينها !... وهنـا خطرها ، فلو أنهـا بدت للعيـان فى صورة حمـاقة صريحة لتجنبتها أبسط امرأة ساذجة ، وأخـذت حذرها منهـا ... لكنها تبدو دائما أمامكن وقد وضعت على وجهها قناعا زائفـا

جميلا ، يوقعكن فى الشرك . فهى آنا تتخذ مظهر الاباء أو الكبرياء المشروع ، والاعتداد بكرامة « الزوجة » الى درجة العناد واثارة الاحقاد !.. وآونة تبدو فى زى الاطمئنان الأعمى الى حب الزوج ، والامعان فى الدلال والاهمال : اهماله هو ، أو اهمال نفسها ومظهرها !.. ومرة ثالثة فى زى المبادرة « الحكيمة » الى معالجة الأمور قبل استفحالها ، وحسم الموقف بالحزم والعزم .. وهو زى تنكرى للرعونة والتسرع الأهوج ، والعتاب المتكرر أو المستمر ...

ومرات أخرى تتخفى الحماقة وراء قناع الحذر والفطنة — أو بعبارة أخرى : التشكك واساءة الظن ! — أو قناع دفع العدوان الوهمى ، بالغيرة الحمقاء والتجسس المرذول !.. أو قناع رفع الكلفة ومعاملة الزوج كند ، الى حد اهانته أو لومه وتوبيخه !.. الى آخر أمثلة هذه الحالات التى تشمخ فيها الزوجة بأنفها زاعمة أنها لم تخطىء ، ما دامت لم تفرط فى كنزها المصون أو فضيلتها الوحيدة : « الشرف » !.. ناسية أو متناسية أن الشرف — للشريفة — هو أضعف الايمان !

● **مهلا** يا ابنتى ، ولا يصدمنك كلامى .. فمعاذ الله أن يكون قصدى منه أن ألتمس لزوجك فى خيانتك عذرا ، أو أهون من بشاعة الاثم ، وانه لبشع ... وحذار من أن تسيئى فهمى فتحسبى أنى أتوجه اليك فى محنتك الحاضرة باللوم والتقريع .. كلا ، فليس المقام مقام اصدار « حكم » بين خصمين ، أو المفاوضة فى الصلح بين عدوين متحاربين ، وانما هو مقام التوفيق بين شريكين متحابين فى شركة دائمة ، لاحت فى سماء وفاقهما الزوجى سحابة صيف .. لن تلبث أن تنقشع !

ولن أقول انك المسؤولة عن تلبد هذه السحابة ، أو أن الخطأ



خطأك .. فأنا لا أعرف حرفا من قصـة الخـلاف بينكما وأسـبابه وملابساته ـ ولست أريد أن أسمع شيئا من هذه التفصيلات ، فقـد ألوم أحدكما فى قلبى ويختمر اللوم فيصير حقدا عميق الجذور ، يصعب انتزاعه من نفسى بعد أن يصفو الجو بينكما ويعود سيرته الأولى!

ثم انى لن الومك ، لسـبب آخر أهم .. هو انى أخشى أن يدور بخلدك لحظة انى ابغى من لومى أن تعـودى الى زوجك راغمة ، لأنى قد ضقت بك فى بيتى .. او انى اوصد بابى فى وجهك واضن عليك بالمأوى .. كلا ، فأنت هنا فى بيتك ، على الرحب والسـعة ، وطفلك هو أعـذب ابتسامة تلوح اليـوم فى شيخوختى ..

وانما جل قصدى أن أقول لك اننا فى شبابنا نسلم قيادنا لانفعالاتنا الطائشة وحدة طباعنا ، ونصدر أحكامنا غالبا بوحى من عاطفتنا وحدها ، فنندب حظنا اذا لم يسر الكون كله على هوانا !.. ولكننا حين نشيخ وتنطفىء حدة شبابنا ، وتنضج عواطفنا الفجة ، ندرك أن الأمور كلها فى هذه الدنيا نسبية .. وأن الخطأ والصواب لهما فى كل ظرف ميزان مختلف ..

ومن هذه الأمور التى ندركها ، غالبا بعـد فوات الأوان ، بصدد الموضوع الذى نتحدث فيه : أن الرجل الكريم لا يخون ، قبل أن تدور فى نفسه معركة .. ويخسرها!

وأنا أعلم أن زوجك رجل كريم ، انحدر من شجرة أصيلة ، ونبت فى تربة طيبة !

صبرا ، لا تقاطعينى .. بل عودى فأريحى رأسك المتعب على صدرى ، ودعينى أمسح هذه الدمعة المعلقة على أهدابك ، وأرفه عن نفسك المكتئبة بقصة شائقة .. مثلما كنت أفعل فى صباك ، حين كان يغلبك النعاس فى منتصف القصة فأحملك الى سريرك على فراش من ذراعى .. أتذكرين ؟

●

تعلمين أنى تزوجت أمك زواج حب ، فى عصر كان فيه الحب جريمة ينبغى التستر عليها !.. وسارت سفينة حياتنا فى بحر هادىء ساكن ، لا تعصف به العواصف والأنواء — ليس معنى ذلك أن بحرنا كان خاليا من الأمواج ، وأننا عشنا فى وفاق دائم ، شأن الموتى أو الغرباء !.. بل اننا كنا نختلف أحيانا ، ولكن كما يختلف الأصدقاء لا الأعداء .. كان يقع بيننا ذلك الخلاف التقليدى الذى لابد من وقوعه بين الأحياء ، بين أى كائنين آدميين لكل منهما عادات ونزعات وأهواء !.. الخلاف على ألوان الطعام التى تهضمها معدة الزوج .. والنافذة المفتوحة التى لا تحتمل بردها الزوجة .. ونوع الموسيقى التى يفضل كل من الطرفين سماعها ، والملاهى التى يحن الى ارتيادها .. والساعة التى يجب أن ينام فيها ، أو يستيقظ !.. بل الخلاف على طريقة انفاق المرتب ، واللوم من جانب الزوجة — أو التحريض — على شراء الحاجيات الجديدة .. وتأرجح كل طرف فى صدد ذلك بين التقتير والتبذير ، أو بين « الحكمة » « والاستهتار » !.. ثم الخلاف بشأن محاباة الأم ، وانتقادات الحماة ، وكلمات الأخ ، أو نظرات الأخت ، واختيار الأصدقاء

والصديقات ، ومعاملة الخدم .. الى آخر هذه القائمة الطريفة أو « النوتة الموسيقية » الخالدة التى يعيش على أنغامها الأزواج منذ عهد آدم وحواء ..!

لكن هذه الخلافات المحتومة لم تكن لتعكر صفو حياتنـا غير فترات قصيرة ، تذوب بعدها فى رحيق الكلمة الحلوة ، أو النظرة العاتبـة ، أو الابتسامة الصافية ، من أحـدنا .. أو تعجز عن الصمود لقوة وجبروت الشركة فى الفراش الواحد . فما أكثر ما تكون لمسة الذراع التى تحدث عفوا ، أو العطر الذى يتضوع من الشعر ، سببا فى صيانة كيان الأسرة من التصدع !

.. وظلت سفينة حياتنا تسير على هذا المنوال .. حتى بدأت أنت رحلتك الى هذا العالم ـ بعد زواجنا بنحو عامين ـ فبدأ البحر يضطرب ، وتعبث بسفينتنا الأنواء . فلكم قاست أمك من آلام الجسد وهى تحملك طيلة الرحلة عبر البحـار التسعة !.. ولكم قاسيت أنا من آلام النفس تبعـا لذلك ، ومشاركة لها ـ وان يكن شقاؤنا المشترك قد زاد فى التقريب بين قلبينا ، فأعطى بقدر ما أخذ ..!

.. حتى وصلت أنت الى دنيانا .. فاذا الجنة السعيدة قد هبطها طائر النكد ، ونبتت فى تربتها الأشواك السامة !.. لا تصدقى من يقول لك أن الأطفال عامل ارتباط بين الزوجين ، وتوثيق لعرى الزوجية .. فانهم فى البداية يكونون عامل تفريق وتنغيص وشقاق ، لاسيما بين الأزواج ذوى المزاج المرهف والزوجات ذوات القلب الرقيق ، فان هذه القطعة اللزجة من اللحم والعظم تكون فى الأشهر الأولى عديمة الطعم والمذاق ، لا هم لها غير تناول الطعام والتخلص منه ، بشتى الطرق .. ولا رسالة لها غير الصياح والعويل ، وافساد كل خلوة بين

الزوجين .. والزوجة لا تضيق بذلك غالبا ، لأنها أم ، وتعلق الطفل بثديها يخلق بين ضلوعها منذ اليوم الأول عاطفة جارفة وحنانا ممتعا على المخلوق الضعيف الذى يقبع بين ذراعيها يستجديها أسباب الحياة . وهذا كله من شأنه أن يشغلها ، ويعوضها ، عن زوجها .. مهما أحبته !

وهكذا بدأ طائر الشقاق يزور البيت ، ويطيل زيارته أكثر فأكثر فى كل مرة !.. أمست ساعات النوم موعدا لا يخطىء ليقظة « الطفلة » وصراخها المزعج اللعين .. وأوقات الطعام موعدا مضروبا لانشغال « الزوجة » باعداد اللبن وتعقيم الأدوات ثم ارضاع الصغيرة وتكريعها ، أو هدهدتها على صدرها استجداء للنوم أو تخفيفا لنوبة مغص .. وهى كلها مهام لا تأتمن الأم عليها عادة خادما جاهلة أو مهملة ..

وكان « الزوج » بطبعه لا يطيق الجلوس الى المائدة وحيدا ، فلم يكن بد من أن ننتظر حتى تنتهى هذه المظاهرة الصاخبة بعد ساعة أو أكثر .. وهنا يكون الطعام الذى أعد قبلها قد برد ، فيعاد تسخينه .. لكن الوجبة تنقطع مرة أخرى حين يحلو لفلذة الكبد أن تنتزع أمها من المائدة بطريقتها الخاصة ، بالاقدام على فعلة يندى لها الجبين ، ثم اطلاق عقيرتها بالصراخ اعلانا عن فعلتها وتنبيها لأمها !.. فتأبى هذه الا أن



تنهض كى تبدل لها ثيابها ، اشـفاقا عليها من البرد ـ فيما تزعم ـ أو اطاعة لرقة قلبها الزائدة ولهفتها المقوتة عليهـا ، فيما أزعم أنا ..!

وبحكم هذه العوائق المتوالية صار النظام اليومى لحياتنا أن نتغدى فى الرابعة ، ونتعشى قرب منتصف الليل ، وننام فى الثانية ـ بعـد أن تنامى ـ كى نصـحو قبـل الفجر على صراخك ..!

وكان حتما أن تضطرب معدتنا بسبب هذه الفوضى الرهيبة فى مواعيـد الأكل ، وهذا النقص الكبير فى ساعات النـوم .. والمعدة اذا اضطربت تضطرب معها الأعصاب وتختل .. واذا اضطربت الأعصاب فسلام على السلام فى البيت !

فى هذه المرحلة الحرجة من مراحل الصلة بين الزوجين ، يكون حتما على كل زوجة حكيمة أن توفق بقدر الطاقة بين مطالب الطفل ومطالب أبيه ، فلا تقدس الأولى كل التقديس وتهمل الثانية كل الاهمال !.. لكن أمك يا ابنتى لم تكن تلك الزوجة .. كان حنانها عليك أسخى من حبها لى ، وعاطفتها أقوى من حكمتها ، وقلبها فوق عقلها ـ أو هذا ما أشعرنى به مسلكها معى وقتئذ !.. صارت أما فنسيت أنها زوجة .. ووجدت بديلة عنى تشغل وقتها وتبدد ضجرها فلم تعد تشتاق الى وجودى ، بل لعلها كانت تنتظر ساعة خروجى بصبر نافذ كى يخلو الجو لهـا ولعبادتها اياك بلا شريك ولا رقيب !..

عبدتك على حساب ربها ، ورب بيتها ، بل وعلى حساب نفسها ، وصحتها ، واناقتها !.. صار لا يهمها أن تأكل الا لتوفر لك القـدر الضـئيل الذى جادت به عليها الطبيعة من اللبن الدسم .. ولا تنام الا بقدر ما يحفظ لها عافيتها كى تخدمك !..

وزياراتها للحلاق ، التى كانت تستغرق منها الساعات كل أسبوع صارت نسيا منسيا .. ووقفتها أمام المرآة ، التى كانت شغلها الشاغل ، غدت تبهرجا زائغا لا يليق بالأمهات !.. كنت أطلبها بالتليفون أحيانا لأمر هام ، فلا ترد .. لانشغالها بارضاعك !.. وذات يوم توعكت صحتك فنسيت أن تعد لى أو لنفسها طعاما .. وبالاختصار لم تعد تأبه الا لك ، أو تفكر الا فيك ، أو تعيش الا من أجلك ..!

وهكذا أمست حياتنا جحيما .. ولمست أن منبع هذا الجحيم هو انت : الطفلة الدخيلة على بيتنا ، المتطفلة على سعادتنا ، التى أفسدت حياتنا من أساسها .. فكرهتك ، من صميم قلبى !.. صارت صرخاتك قطعة من العذاب بالنسبة لى .. فهجرت البيت ، أكثر ساعات النهار والليل .. عدت الى مجتمعات العزاب وندوات خلانى القدماء !..

وزاد ذلك من توتر الجو بين أمك وبينى .. وبعد أن كان طائر الشقاق يزورنا بين الحين والحين ، ليحمل معه عند رحيله فى كل مرة لبنة جديدة من بناء سعادتنا .. طابت له عشرتنا فاعتبر البيت بيته وأقام بصفة دائمة !

ورحت أنا أرقب اكفهرار الجو وأنا مشفق على الصرح الذى تعبنا فى تشييده من أن ينهار .. لكن الخلاف المتكرر والمشادات اللفظية تحفر فى النفوس أخاديد من الاحقاد والضغائن تطمس معالم كل تفكير سليم ، وتجعل الأعصاب مهيأة للانفجار فى أية لحظة .. والنقائص التى يكشف عنها كل من الزوجين للآخر فى ساعات الصفاء ، والضعف ، تصبح وقتئذ أسلحة للخصومة والبغضاء يتراشق بها الطرفان ..!

وهكذا ، ذات يوم ، ألقت أمك فى وجهى بكلمة جارحة ، رددت عليها بصفعة موجعة ، عز عليها بدورها أن تحتملها .. فهرعت الى غرفتك واعتصمت فيها ، بعد أن صفقت الباب خلفها بشدة ، فى وجهى !.. وفى المساء وضعت لنفسها سريرا « سفريا » خفيفا بجوار سريرك ، ايذانا بالقطيعة ..!

●

فى تلك الليلة .. خطر لى ــ لأول مرة ــ أن أخون زوجتى !

فقد رأيت فى اعتصامها بغرفتك مبادأة بالعداء ، والاعتداء ! وبدافع من مرارة شـعور الزوج بأنه مجنى عليـه ، مغموط الحقـوق ، مجحود الفضـل ، من المرأة التى ملكهـا على قلبه وبيته .. وجدتنى أبيت النية على الانتقام !.. والشعور بالظلم هو أول مراحل الاقتصاص للنفس ، وأقوى دوافعه ...

وكما يحدث فى المحكمة اذا تغيب محامى المتهم ، فأفسح المجال لممثل النيابة يصول ويجول ، ويعزز أدلة الاتهام ، دون مقاومة أو تفنيد من جانب الدفاع .. حدث فى قلبى سـواء بسواء !.. فان قطيعـة زوجتى أفسحت الفرصة لحقـدى كى يفـرخ ويلد ويتكاثر ، دون مقـاومة أو دفاع من نظرة ، أو لمسة ، أو عتاب !.. وحين استيقظت فى الصباح فوجدتها ممعنة فى المقاطعة ، وعلمت من الخادم أنها قد تناولت افطارها وأوصته باعداد طعامى وقتما أطلبه ، أدركت والغيظ يأكل قلبى اننا مقبلان على خصام طويل !.. فقدكنت أعرف الناس بأن كلينا ذو طبع عنيد ، لا يرجى معه أن يتراجع عن موقفه قبـل أن يتراجع « غريمه » .. والعناد من رجل فى مثـل موقفى كان فى نظرى أمرا فى محله تماما ، باعتبارى المعتدى عليه فى سلسلة تلك التصرفات العدوانية التى بدأت بالاهمال ، وهضم الحقوق ،

والكلمة الجارحة ، ثم انتهت بالاعتصام والمقاطعة !.. أما من جانبها هى فقد كان العناد نوعا من امعان المعتدى فى عدوانه .. بل نوعا من مركب النقص الذى يجعل الطرف الأضعف يغالى فى الاعتداد بكرامته وكبريائه كلما توهم اساءة من الآخر ، تعويضا عن ضعفه !.. والكبرياء يا ابنتى — بين الزوجين — آفة البيوت وطاعونها .. فهى والسلام البيتى ضدان لا يجتمعان اذا دخل أحدهما من الباب ، فر الآخر من النافذة !

● **وهكذا** طردت زوجتى السلام والسعادة من بيتنا بحماقاتها المتوالية ، وفرط اطمئنانها الى حبى وقدرتى على الاحتمال !.. ومضى على فرقتنا المريرة أسبوع كامل ، كانت كل ساعة منه تسقى فى نفسى تربة الحقد وتنمى فيها أزهار الشر والبغضاء والنقمة عليها ، بسبب امعانها فى العناد أكثر منها بسبب الخلافات الأولى التى أدت الى الأزمة !.. وخلال ذلك الأسبوع تطورت فكرة الانتقام فى ذهنى ونضجت بسرعة مخيفة ، تجعلنى أتوجه اليك يا ابنتى بنصيحة حاسمة فى هذا الصدد ، مشفوعة بهذا الرجاء الحار : حذار من أن تتركى زوجك منفردا بنفسه بعد تبادل قارص القول فانك بذلك تهيئين الفرصة لجراثيم الضغينة الخبيثة كى تنمو فى قلبه ورأسه وتتضخم ، وتلد آمالا ونيات شريرة بشأن متع محرمة يصعب الرجوع عنها بعد أن تختمر فى الذهن ، وتتعمق جذورها !

.. ففى نهاية الأسبوع كانت الخيانة قد اختمرت فى نفسى تماما ، بعد أن فتحت لها زوجتى — بيدها — باب العش السعيد ، وأحدثت الثغرة الحاسمة فى حصون دفاعى ضد اغرائها !.. لم أكن قد خنت أمك قط منذ زواجنا — ولو أنى أكون كاذبا منافقا ان زعمت لك أن الشوق الى الخيانة لم يراودنى

يوما طوال تلك المدة !.. وأى زوج من الأزواج « المحظوظين » الذين عاشوا حياتهم أوفياء لزوجاتهم ، يستطيع أن يزعم أن فكرة الخيانة لم تلح على خاطره بدل المرة مرات ؟.. انها تراود الفكر فى بعض الظروف ، وتغرى ، وتلح ، فيصمد لهـا الزوج أو يخور تبعا لقوتها ولقوة مقاومته لها فى كل ظرف من تلك الظروف !.. وكان ذلك ما حدث لى مرارا من قبل . كانت تطاردنى عوامل الاغراء بين الحين والحين ، فلا تطالعنى ابتسامة زوجتى الطاهرة ونظرتها البريئة الصافية حتى تتبخر الفكرة على وهج حبنا المتبادل وتموت فى المهد ، فأشيعها غير آسف ، لائما نفسى الأمارة بالسوء !.. اما فى هذه المرة فقد وجدت الفـكرة ، فى أعماقى ، التربة الخصبة والحصن المهجـور من حراسه ، أو المحكمة التى يصول فيها الاتهام ويجول ، بغير مدافع .. وتلفت حولى حائرا مشفقا ، أتلمس سندى المألوف الذى اعتدت أن أتحصن وراءه ، وأقاوم ، حتى أنتصر .. أتلمس ابتسامتهـا التى طـالما عز عـلى أن أطفئهـا .. لكنى لم أجدها !.. وجدت بدلا منهـا عبوسا ، وقطيعة وامعـانا فى الاسـتكبار .. فشعرت ، شعورا صادقا مخلصا ، بأنى قد تحررت من واجب الاخلاص لها ، وغدوت فى حل من الخيانة !.. بل زعمت لنفسى الحانقة أنها تستحق الخيانة فعلا ، وانها هى التى أرادتها .. وانى فى حاجة الى اراحة أعصابى المتعبة فى أحضان امرأة أخرى تغلب أنوثتها أمومتها .. امرأة لا يشاركنى فيهـا طفلى !..

وفى حمى هذا الحنق الأسود نثرت السهام التى فى جعبتى .. استعرضت فى ذهنى المحموم قائمة من أعرف من النساء ، واحدة واحدة .. حتى شل تفكيرى أمام احداهن : امرأة شائقة

من صـــديقات زوجتى كنت قد طالما قرأت فى عينيها نظـرة الدنس ونية الغدر ! ٠٠ وأدهشنى أن وجدتنى أنسى احتقارى لها وأذوب لهفة عليها ٠٠ وكان الدافع الى الاحتقار واللهفة فى الحالين واحد : صداقتها لزوجتى ! ٠٠ أردت أن يكون انتقامى كاملا ، رهيبا ٠٠ !

وحين تناولت سماعة التليفون لأتصل بها ، اشتدت دقات قلبى ٠٠ فان الخيانة الأولى من الزوج المخلص ـ مثل الخطيئة الأولى من الفتى المراهق ـ تكون عادة شديدة الوطأة على الأعصاب! لكنى استنجدت بحقدى المكظوم وأدرت الرقم المطلوب ٠٠٠

وأردت أن أصـــل الى مبتغـــاى من أقصر طـــريق ، فزعمت لمحدثتى انى أبغى لقاءها كى أوسطها بينى وبين زوجتى ، وبذلك أوجدت لها ـ فى عينى نفسها ـ المبرر الكافى للقاء ٠٠ فلمـــا قبلت الخبيثة أن تلقانى فى مكان آمن ، وفى صوتها رنة الظفر المكتوم ، والقصد المفهوم ، أيقنت أن أوان التراجع قد فات ، وانى خسرت المعركة ، وحاقت بى الهزيمة !

الهزيمة التى قامت زوجتى فيهـــا ـ دون أن تقدر ـ بدور « الطابور الخامس » !

وأقسم لك أننى فى تلك اللحظة ٠٠ بكيت !

●

قد تسألينني يا ابنتى : وأين ذهب الحب ؟

وأنا أجيبك ، يا ساذجة ، بأن الحقد والعنـــاد أقوى من الحب ٠٠ فالحب نور ، والحقـــد نار ٠٠ والنار أقـــوى من النور ! ٠٠ وهكذا ـ دعينى أصارحك ـ طمس الحقد حبى فمضيت فى الشـــوط الى غايته ٠٠ واســـتمتعت بالخيانة استمتاعا كاملا ، لا تشـــوبه غصـــة فى الحلق أو همســـة من

ضمير ! ٠٠ وكلما لاح لى بريق من ندم كان عبوس أمك يؤجج النار فى قلبى ويمدنى بحافز مجدد على المضى فى طريقى ٠٠

واستمرت القطيعة بينى وبين أمك أسبوعين آخـــرين ، ولست أدرى الى متى كانت لتستمر لو لم يترفق القـدر بها وبى فيصيبها بحمى الانفلونزا ، التى خشيت عليك من عدواها فتركتك فى غرفتك وعادت الى غرفتى صاغرة ٠٠ !

وكان طبيعيا أن يزيل مرضـها مظاهر الجفوة التى بيننا ، ويوجد لكلينا مخرجا كريما من عناده القاتل : فأرى أنا ان واجب الشهامة ـ على الأقل ـ يقتضينى أن أعنى بها ، وبك أيضا ، وأعينهـا على مغالبـة الحمى واسترداد صـحتها .. وترى هى أن تشكرنى على موقفى النبيل وتعتذر لى وهى تبكى بحرقة ! ٠٠ واستطاعت الدموع أن تصنع المعجزة ، وتغسل كل ما كان بيننا من ضغن وشجن ، فعدنا سيرتنا الأولى من الحب المتبادل المكين ٠٠ وانجابت عن سماء حياتنا تلك السحابة من الكدر ! ٠٠

ولكن ٠٠٠ لم أكد أفق من فرحتى بعـودة الوفاق الى جو بيتنا ، حتى تبينت أنى لم أخرج من مأزق الا لأقع فى مأزق آخر ٠٠ فقد واجهتنى مشكلة التخلص من رفقة المرأة الاخرى ، التى صارت خلال الاسابيع الاخيرة جزءا من حياتى ، وصرت بدورى جزءا من حياتهـا .. والتى أشبعت فى كيانى حنين الانسان الغريزى الى المحرمات ، بحيث بات عسيرا على ـ ان لم أقل مستحيلا ـ أن أقتلعها من دنياى اقتلاعا ٠٠ فلم أجد مفرا آخر الأمر من أن أرجىء حسم الموقف وأدع المشكلة معلقة زمنا ، حتى تتكفل بحلها الايام ٠٠ !

وهكذا استمرت صلتى المحرمة قائمة تشوب صفاء مشاعرى

نحو زوجتى .. وكلما كنت أتبين عجزى عن استئصالها باجراء حاسم كان يتضاعف حنقى على نفسى ، وضعفى ! كنت أشبه بالمدخن الذى يدرك مضار التدخين ولكنه لا يقوى على تطليقه !

●

واستبد بى الندم ، بت أقارن حاضرى المبلبل الذى ينغصه الزيف والخديعة ، بسعادتى الغابرة التى كانت عمادها سكينة النفس ومكاشفتى التامة لزوجتى بكل دقائق حياتى وخلجات أفكارى ومشاعرى .. فتطوف الدموع بمقلتى أسفا وحسرة !

وكانت ملامحك الحلوة قد استبانت ، واستطعت بابتسامتك وملاغاتك أن تستميلى اليك قلبى الجاحد .. فبدأت - تدريجيا - ألتمس لأمك الأعذار فى تصرفاتها معى بسببك . أدركت أن قلب الأم أحد بصيرة وأسبق من قلب الأب الى الاحساس بعذوبة فلذات الاكباد ، والى اسباغ عواطفه عليهم ، ربما بحكم حنان الضعيف على الضعيف .. !

بل انى جعلت ألوم نفسى على أنانيتى السابقة التى حجبت عن صوابى ادراك حقيقة هامة - فى الوقت المناسب - وهى أننا ، نحن الازواج ، نألف من زوجاتنا فى أشهر الزواج الاولى تدليلا لا يقوين على المضى فيه طويلا بعد أن تهاجمهن متاعب الحمل والولادة وتربية الطفل ، التى تخلفهن مضنيات محطمات الاعصاب ... والمواضع التى احتللناها من قلب الزوجة واهتمامها نبدأ فى الجلاء عنها ، طائعين أو مجبرين ! .. وفى هذه الفترة لا يكون بد من تعاون الزوجين على تقاسم المتاعب واجتياز المضيق الخطر بسلام ، والا تحطمت سفينة الأسرة الصغيرة على صخرة تلك الانانية البغيضة ..

وعلى ضوء ادراكى لهذه الحقيقة ، تفاقم فى نفسى الندم

والشــعور بالاثم ، وتضاعفت حيرتى فى العثور على مخرج من ورطتى ٠٠ فشغلنى ذلك كله عن أن ألقى بالا الى التغير الذى طرأ على زوجتى فى غضون الاسابيع التالية ، والذبول المتزايد الذى اعتراها ، والحنان الناعم الذى باتت تغمرنى به ٠٠ حتى شاءت المصادفة أن أعود ذات يوم مبكرا الى البيت ، ففاجأتها أمام المرآة تتزين وتتأنق بمزيد من العناية ، شأنها فى الايام الاخيرة ٠٠ ولم تكن قد فرغت من زينة وجهها وعينيها ، فلحظت احمرارا فى أجفانها يشى بالبكاء الطويل ؟ ٠٠ لكنها نفت ذلك حين سألتها زاعمة أن بعوضة قد انسلت الى عينها فسببت هذا الاحمرار ! ٠ فلما ألحفت عليها فى السؤال والاستعطاف ، مضيقا عليها الخناق ٠٠ انهارت مقاومتها ٠٠ وانفجر ألمهـــا المكبوت ٠٠ فانخــرطت فى البكاء ، بحرقة ولوعــة مزقتا قلبى ٠٠ !

ومن خلال نشيجها راحت تعاتبنى ٠٠ قالت انها وقفت على خيانتى منذ زمن ، منذ عثرت برسالة من صديقتها الى كانت قد سقطت من جيبى سهوا ٠٠ فأذهلتها الصدمة ، وأذلتها ٠٠ لكنها أيضــا فتحت لها عينيها فجأة على أخطائها الماضــية ، وحماقاتها التى دفعتنى الى هذه الهاوية دفعا ٠٠ ومن هنا رأت الا تفاتحنى فى الامر حتى تتدبر الموقف فى روية ، كان همها أن تستعيدنى اليها لا أن تفقد البقية الباقية منى ٠٠ وخشيت ان هى ثارت فى وجهى أن يتعقد الموقف فأمعن فى الضلال ٠٠ سيما وانها قد قاست ابان الخصـــام الاول مثلما قاسيت ، واعتبرت بعاقبة التهور والعناد وتغذية الأحقـــاد ٠٠ ومن ثم صبرت وجاهدت كى تستردنى من غريمتها بالحسنى ، بالملاطفة والحنان ، واستمالة قلبى وحسى اليها بشتى أسلحة المـــرأة

ووسائلها فى الاغراء ٠٠ فلما كان ينقضى النهار دون أن يبدو على مسلكى معهـــا أى أثر لمحاولاتها ، كانت تلوذ بحجرتها كى تبلل الوسادة بدموع المذلة والهوان ٠٠ حتى أعود من المقهى أو من سهرتى مع غريمتها فأجدها نائمة ، وهى فى الحقيقة متظاهرة بالنوم ... ثم يشرق عليها الصباح ، بعد ليلة مسهدة ، كى تبدأ « كفاحها » الشاق من جديد ٠٠ !

تفصد جبينى بعرق الخجل من نفسى وأنا أنصت لاعترافها . . وتتابعت على مخيلتى فى غمضة عين شتى فصـــول ومشاهد « الدراما » المسلسلة التى قمت فيها خلال الأشهر الاخيرة بدور « البطل » ـ أو دور « النذل » ! ـ وكانت كلاكما فيها بمثابة الضحية ٠٠ فلما رفعت أمك الى أخيرا وجهها المبلل بالدموع ، لتقول لى انها قد صفحت ، ومحت من قلبها كل أثر للضغينة أو الحنق على ٠٠ وجدتنى أتهاوى على ركبتى منهارا أمامها ، وأنا ألعق دموعها بشفتى ، ودموعى أنا تهطل عـلى خديهـــا وخدى ٠٠

وأحسست براحة عميقة وأنا أقسم بين يدى ربى ويديهـا أن أظل وفيا لها مدى الحياة !

●

ولست فى حاجة الى أن أؤكـد لك يا ابنتى اننى لم أحنث بقسمى هذا حتى اليوم ! ٠٠ وان غفرانها ذاك لخيانتى الآثمة كان بمثابة « مانعة الصواعق » التى درأت عنى منذ تلك الساعة اغراء الفــواكه المحرمة ، ونزوات النســاء . . فحمتنى منهن ، كما حمتنى من نفسى ! ٠٠ أمدتنى بالقوة الجبارة على الصمود فى وجه الغـــواية ومنازلتها بجأش ثابت ويقين راسـخ فى النصر . لست أنكر أنى لقيت صـعوبة بادىء الأمر فى أن أفطم

نفسى عن شفتى عشيقتى الشائقة ، واكبح شوقى الجامح الى متعة ألفتهـــا .. لكن الرجل منا حين يصرف النظر نهائيـــا عن غذاء شهى قاتل يحرمه عليه الطبيب ، ويكف عن أن يمنى نفسه به ، ينتهى الأمر به الى أن ينساه تماما .. فينعم بســـكينة النفس ، التى لعلها هنا سكينة اليأس .. أو الزهد فى الكأس !

.. أما أمك ، فكانت من الحكمة بحيث لم تذكرنى يوما بعد ذلك بخطيئتى القديمة ، ولو خلال عتاب أو مزاح عابر ، ولا أدخلت فى روعى قط ـ بتصرفاتها ـ أن لتلك الذكرى السوداء أى أثر باق فى قلبها .. فكان الأثر الوحيد الذى خلفته المحنة فى حياتنا أن بابنا صار موصدا فى وجه الصديقة الغادرة .. الى الأبد !

●

أرأيت يا ابنتى أن الرجل الكريم لا يخون ، قبل أن تدور فى نفسه معركة .. ويخسرها ؟

وهذه المعركة ـ كونى على يقين ـ قد دارت فى نفس زوجك ، وخسرها .. ربما بسببك ! .. لعلك أنت التى دفعته الى الخيانة دفعا والقيته فى أحضان غريمتك ، المرهفة الاحساس ، المعتزة بكبريائها .. ومع ذلك فان أمك لم تهجر بيتى ـ حين وقفت على خيانتى ـ كما تهجرين أنت اليوم بيت زوجك ، فى اندفاع طائش ، جاهلة بأن الارض التى تفقدها الزوجة ـ فى قلب زوجها ـ بهذا الهجر الاحمق يصعب عليها أن تستردها ! .. والشبر الذى أخلته فى غمضة عين قد يقتضيها احتـــلاله من جديد أشهرا طويلة ، وكفاحا شاقا مريرا .. وقد لا تستطيع استرجاعه على الاطلاق !

وأمك ، حين غفرت لى ، لم تكن تعرف ـ على وجه اليقين ـ

العوامل النفسية التى بررت الخيانة فى عينى ، لكنها افترضتها ٠٠ ولا تحسبى أنى وحدى الذى أحسست أن لى فى خيانة زوجتى عذرا ، ومبررات ٠٠ فان لكل زوج خائن عذره ومبرراته التى يحجبها التسرع فى الاتهام غالبا عن ادراك الزوجة ٠٠ فلماذا لا تراجعين يا ابنتى نفسك وتقولين : لعل له عذرا وأنت تلومين !؟

لست أريد ـ كما ذكرت لك ـ أن أدخل فى التفصيلات ، أو أسمع منك شيئا عما حدث بينكما ، فقلبى يحدثنى بأن القصة بعينها قد تكررت ، قصة الزوجة التى ترى من الطبيعى أن تحب طفلها أكثر من أبيه ٠٠ والزوج الذى يرى من الطبيعى أن يظل هو فى المقام الأول من رعاية زوجته واهتمامها ٠٠ ولكن ، سواء أكانت تلك هى قصتك ، أم سواها ـ والشيطان يا أبنتى أبرع وأخصب مؤلف للقصص ! ـ فنصيحتى اليك أن تدركى أن صرح الهناء البيتى يقوم على حكمة الزوجة أولا ٠٠ فتذرعى بهذه الحكمة ولا تتمادى فى التحدى والعناد ، والا هدمت عشك على رأسه ورأسك معا ٠٠ أو كنت كمن أغرق السفينة ليغرق عدوه فيها ، فغرق هو معه ٠٠ !

واعلمى أن الأزواج ليسوا أدوات تصاغ حسب الطلب و « المواصفات » وانما هم بشر لهم أخطاؤهم كما لكن أخطاؤكن .. ولا بد لكل من الزوجين أن يقبل الآخر على علاته ، فانه لو توهم أن فى مقدوره العثور على انسان آخر على وجه الأرض لا ينغصه أو يخالفه فى شىء .. فلن يجد ، ولا حتى نفسه !

فتعقلى يا ليلى ، واغفرى ٠٠ فو الله لو ضنت أمك على بالغفران لأمعنت فى الضلال ، ولصرنا الى حال لا يعلم الا الله مداها ٠٠ !

اغفرى يا ليلى ٠٠٠ فالغفران ـ لا العقاب أو الانتقام ـ هو

بلسم العدوان ، الذى يمسح شقاء القلوب ، المجروحة والجارحة على السواء ٠٠ !

وعودى يا ليلى ، الى بيت زوجك ٠٠ الى بيتك ! ٠٠ فانه ملاذك الاول والاخير ٠٠ وزوجك هو رفيقك الأوحد فى رحلة الحياة الطويلة الجرداء ! ٠٠ عودى ولا تدعى سقفى يظلك ليلة واحدة وأنت غضبى ، أو تشرق الشمس عليك وأنت فى بيت أمك وأبيك ٠٠ !

حذار أن تحسبى أنى أضيق بك ، وبطفلك .. ولكن بئس الأب الذى أكونه اذا فتحت لك بيتى وأنت مع زوجـك على خلاف ! ٠٠ ان قلبى مفتوح لك دائما ، أما بيتى فموصد دونك ! ولسوف تشكرين لى يوما انى أغلقت بابى فى وجهك كى يظل بابك مفتوحا على الدوام ، مشرقا ، وبهيجا ٠٠ !

كلا يا ابنتى ، انك على ضلال ٠٠ فلست أنا بالأب الـــذى يرضى لابنته الذل والهوان ٠٠ وليس الأمر أمر كرامة نفس أو كرامة أسرة ينبغى أن تصان ٠٠ وانما هو أمر سعادة زوجية أجدر بالصيانة واحق ٠٠ فلرب نصر للكرامة والكبرياء أفضل منه الهزيمة وأجدى ٠٠ !

فاغفرى يا ليلى .. وكفكفى دمعك .. وعودى ..!

عندما يرفع الستار ..



روائع المسرح العالمى
(التمثيلى .. والغنائى)

عزيزى القارىء ..

كان المسرح منذ أقدم العصور ، وما يزال ، المدرسة الأولى للشعوب المتحضرة .. وقد رأيت أن أقدم لك فى هذا الباب ، فى العدد الذى بين يديك والأعداد التالية من « كتابى » ، مجموعة منتقاة ومنوعة من أروع المسرحيات التى عرفها العالم ، فى مختلف عصوره وبلدانه .. فانقلك يوما الى المسرح الألمانى ، ومرة أخرى الى المسرح الانجليزى ، وثالثة الى المسرح الفرنسى ، أو الأمريكى ، أو اليونانى القديم ، أو الهندى ، أو الأسبانى ، أو الهنغارى ، أو الصينى ، أو النرويجى ، أو الروسى ، أو الايطالى .. سواء التمثيلى او الفنائى ..

فتعال معى نبدأ اليوم هذه الجولة الممتعة فى ركاب هؤلاء السادة الخالدين : أوسكار وايلد ، ابسن ، شيللر ، موليير ، هوجو ، راسين ، برنارد شو ، شكسبير ، بن جونسون ، جوته ، جوجول ، تشيكوف ، تولستوى ، جوركى ، دانونزيو ، بيرانديللو ، كورنى ، بومارشيه ، ادمون روستان ، بول بورجيه ، مارسيل بريفو ، أوليفر جولدسميث ، شريدان ، جولزورثى ، سومرست موم ، نويل كوارد ، أوجين أونيل ، كاريل كابيك ، مولنار ، سترندبرج ، موريس مترلنك .. وحاشا أن ننسى الأساتذة القدماء لكل هؤلاء : سوفوكل ، يوريبيدس ، أرستوفان ، اخيل ، فيرجيل .. الخ .

A WOMAN
of NO
IMPORTANCE
By
OSCAR WILDE

خطايا الحب

قصة تمثيلية كبرى
لأوسكار وايلد



شخصيات الرواية

Lord Illingworth	لورد النجورث
Gerald Arbuthnot	جيرالد اربثنوت
Sir John	سير جون
Lord Alfred	لورد ألفريد
Mr. Kelvil	مستر كيلفل
Butler	رئيس الخدم
Francis	الخادم
Lady Hunstanton	ليدي هنستانتون
Lady Caroline	ليدى كارولين (زوجة جون)
Lady Stutfield	ليدى ستتفيلد
Mrs. Allonby	مسز ألونبى
Miss Hester Worsley	مس هستر ورسلى
Mrs. Arbuthnot	مسز أربثنوت
Alice	الخادمة

زمان الرواية : العصر الحاضر ·

مكان الرواية : الريف الانجليزى ·

(تقع حوادث الرواية خلال أربع وعشرون ساعة)

عزيزى القارىء ...

المسرحية التى أقدمها اليك فيما يلى هى احدى روائع أوسكار وايلد الخالدة ، وقد أطلق عليها اسم : A Woman of no Importance اى « امراة لا وزن لها » ، وهو اسم لا يصلح للترجمة العربية كما ترى ، لذلك آثرت ان أقدمها اليك باسم « خطايا الحب » وهو اقرب الأسماء الى موضوعها فيما أعتقد ..

وانت قد تكون لم تقرأ شيئا لأوسكار وايلد من قبل ، فى حين انك لكى تتذوق أدبه على الوجه الأكمل ينبغى أن تلم بطريقته الفذة فى التعبير واسلوبه اللاذع فى الكتابة .. ولن أحاول فى هذا المجال الضيق أن اعرفك باوسكار وايلد وأدب أوسكار وايلد ، وانما حسبى أن أحاول تعريفك بطابعه الخاص فى الكتابة ، ولا سيما فى الكتابة التى تنطوى على حوار .. فهو شغوف بالمفارقات اللاذعة الشبيهة بصواريخ ذهنية براقة يطلقها فى الهواء فتخلبك وتبهر أنفاسك .. من فرط ما تنطوى عليه من الصدق الصارخ أحيانا .. ومن التهكم الساخر بالأوضاع المقلوبة التى تسود المجتمع الحديث ، احيانا اخرى .. فهو فى جميع كتاباته يشن الحرب بلا هواده على النفاق الاجتماعى والرياء والزلفى ، التى تسود المجتمع العصرى بصفة عامة ، والمجتمع الانجليزى بصفة خاصة ، ولاسيما بين أفراد طبقة المحافظين المتغطرسين .. استمع اليه وهو يقول على لسان الحسناء « الأمريكية » هستر ورسلى ، فى حديثها الى ليدى هنستانتون : « انكم تنبذون عن مجتمعكم كل ما هو طيب ولطيف ، وتسخرون من كل ما هو طاهر وبسيط ، كى تعيشوا على أكتاف الآخرين ، وبفضلهم ! ».. أو وهو يخاطب هستر على لسان « ليدى كارولين » : « قد لا تعلمين يا عزيزتى اننا فى ايام شبابنا لم تكن مجتمعاتنا تضم رجلا يعيش من عرق جبينه .. لم يكن ذلك لائقا ! » .. أو قوله على لسان المرأة نفسها : « ان الانجليزيات يخفين مشاعرهن الى ما بعد الزواج ، ثم يظهرنها بعد ذلك ! »

وأوسكار وايلد ولوع فى حواره كما ذكرت ، بالمفارقات الصارخة ، التى تجعلك تتوقع فى بداية العبارة نهاية معينة ، فاذا بك تفاجأ بعكسها تماما .. فهو يقول على لسان احدى شخصيات الرواية مثلا : « ان ليدى « بلتون » قد فرت مع عشيقها ، فمات زوجها بعد فرارها بثلاثة ايام » !.. الى هنا وانت

تتـوقع أن الزوج المسكين مات حزنا وغما .. فاذا بك تفاجأ ببقية العبـارة : « فمات زوجها بعد فرارها بثلاثة أيام ، من شدة الفرح .. أو من داء النقرس ، لا أدرى ! »

وهو بالسخرية عينها يقول لك على لسان شخصية أخرى : « ما أفظع ما اعتاده الناس هذه الأيام من أن يقولوا عن الشخص فى غيبته » وأنت هنا تتوقع أن تكون تتمة العبارة مثلا « الأكاذيب والمفتريات » لكنه يفاجئك بدلا من ذلك بالعكس تماما ، فيقول : « ما أفظع ما اعتاده الناس هذه الأيام من أن يقولوا عن الشخص فى غيبته ، الحقائق بحذافيرها ! »

وبنفس الطريقة يقول على لسان « لورد الفريد » : « أن السجاير التى أدخنهـا غالية الثمن جـدا .. بحيث لا أستطيع شراءها الا حين أكون مثقـلا بالديون ! »

أو يقول على لسان آخر ، ردا على عبارة من امرأة تحدثه : « تعجبين بى من أجل شىء واحـد فقط ؟ لكن لى صـفات سيئة كثيرة ؟ » ... كأن المرأة تعجب به من أجل صفاته السيئة لا الحسنة !

ثم استمع اليه يقول على لسان ليدى ألونبى ، فى حديثها الى جمع من صديقاتها : « سأذكر لكن الذنب الذى ارتكبه زوجى .. اذا وعدتننى بأن تذكرنه لكل من تصادفن ! » .. بدلا من أن تقول : « لا » تذكرنه ..!

.. أو يقول على لسان ليـدى كارولين فى حديثها الى الفتـاة الأمريكية : « بعد عشاء شهى يستطيع المرء أن يغفر زلات أى انسان ، حتى لو كان من أقربائه ! » ـ بدلا من أن تقول : حتى لو كان من أعدائه !

بل اقرأ قوله على لسان اللورد النجورث فى حديثه الى الليدى هنستانتون : « ان النساء يحببننا من أجل نقائصنا ، فاذا كان لدينا منها الكفاية غفرن لنا كل شىء .. حتى ذكاءنا » وهو بهـذا يرمى الى السخرية من درجة تقـدير النساء لذكاء الرجل !

ثم اقرأ سخرية أوسكار وايلد من اللورد النجورث نفسه ، حين يقول على لسانه : « انى فى سـبيل أن أسترد شبابى لن أحجم عن تضحية ، اللهم طبعا الا أن أزاول التمرينات الرياضية وأستيقظ مبكرا ، أو أغدو عضوا نافعـا فى المجتمع ! » .. كأن صيرورته عضوا نافعا فى المجتمع تعد تضحية من جانبه !!

والآن .. لنرفع الستار عن الرواية ذاتها :

الفصل الأول

نحن فى حديقـة قصر « ليدى هنستانتون » الريفى ، وقد دعت النبيلة الثرية خليطا من صديقاتها وأصدقائها كى يقضوا فى ضيافتهـا عطلة نهـاية الأسبوع « الويك اند » بعيدا عن ضجيج العاصمة وضوضائها ... ونتعرف الى الحلقة الأولى من ضيوفها فاذا هى تتألف من ثلاثة : ليدى كارولين ، وزوجها سير « جـون » ، وفتاة أمريكيـة هى « هستر ورسلى » ، وقد جلس ثلاثتهم فى الحديقة الممتدة أمام شرفة القصر ، تحت شجرة ضخمة عتيقة ، يتسامرون ويثرثرون .. ونلمس من حديث الزوجين ـ المتقدمين فى السن ـ مبلغ اعتزاز الانجليز ببلادهم وجهلهم بغيرها من بلاد العالم ـ حتى أمريكا ـ جهلا يخفى قدرا من الاحتقار !.. ونعلم أن مس ورسلى تزور انجلترا لأول مرة ، ومن ثم فهى ما تزال تجهل طباع الانجليز المحافظين وعجرفتهم ، فلا تكاد تطلق نفسها على سجيتها « الأمريكية » وتشارك ليدى كارولين فى انتقادها لاحدى المدعوات ، واسمها مسز « ألونبى » ، حتى تبادرها محدثتها فى رياء العجائز المتفطرسات :

كارولين : لست أعتقد يا مس ورسلى أن من حق الأجانب مثلك ابداء اعجابهم أو نفورهم من ضيوف دعوا الى المكان معهم، فضلا عن أن مسز ألونبى امرأة من أسرة عريقة معروفة . قد يقال طبعا أنها فرت من بيت أهلها قبل الزواج مرتين ، لكنك تعلمين كيف يبالغ الناس عادة فى أقوالهم . وأنا شخصيا لا اعتقد أنها فرت من أسرتها غير مرة واحدة !

هستر : وما رأيك فى مستر « أربثنوت » ؟ انه شاب جذاب ..

كارولين : آه ، تقصدين الشاب الذى يعمل فى أحد البنوك ؟.. قد لا تعلمين أننا فى أيام شبابنا لم تكن مجتمعاتنـا تضم رجلا يعيش من عرق جبينه .. لم يكن ذلك لائقا !

هستر : لكننا فى أمريكا نحترم هذه الفئة أكثر من جميع طبقات المترفين !.. والواقع أنى شديدة الاعجاب بمستر أربثنوت ..

كارولين : ليس من المألوف فى انجلترا يامس ورسلى أن تتحدث فتـاة عن رجل بهـذه الحماسة .. ان الانجليزيات يخفين

مشاعرهن الى مابعد الزواج ، ثم يظهرنها بعد ذلك !

• **وهنا تقبل ربة القصر « ليدى هنستانتون » ويقبل فى أثرها الشاب جيرالد أربثنوت فيزف الى مضيفته البشرى بأن الثرى الكبير اللورد « النجورث» قد عرض عليه أن يكون سكرتيره :**

الليدى : سكرتيره ؟ هذه أنباء طيبة حقا ياجيرالد ، فهى تعنى أن أمامك مستقبلا باهرا ، ولسوف تسر والدتك حين تعلم بالأمر .. سأكتب اليها لأبلغها النبأ السار وأدعوها للحضور الليلة كى تتعرف الى اللورد وتشكره .. **(ثم تنهض الى منضدة قريبة لتكتب الخطاب فيشكرها الشاب على اهتمامها ، ثم يلتفت الى الحسناء الأمريكية :**

جيرالد : هل لك فى جولة فى الحديقة يامس ورسلى ؟

هستر : بكل سرور ..

• **وتخرج معه ، بينما يدور بين العجائز حديث نعلم منه أن اللورد النجورث مرشح لأن يعين فى السلك السياسى ، كسفير لبلاده فى « فينا » .. ثم تدخل سيدتان ، هما « ليدى ستتفيلد » ، و « مسز ألونبى » التى كان القوم ينتقدون فرارها من أهلها فى شبابها :**

هنستانتون : أرجو أن تكون ألحديقة قدأعجبتك ياعزيزتى..

ألونبى : انها رائعة حقا .. وان كنت أشعر أننى لو عشت فى الريف ستة أشهر لغدوت امرأة بليدة الاحساس ، لا تعجب أحدا !

هنستانتون : أؤكد لك أنك تظلمين الريف بهذه التهمة ، فعلى بعد ميلين من هنا يقع البيت الذى فرت منه ليدى بلتون مع عشيقها لورد « فذرسديل » . وقد مات زوجها بعد فرارها بثلاثة أيام ، من شدة الفرح .. أو من داء النقرس ، لا أدرى !

ألونبى : الفرار مع الحبيب نوع من الجبن فى رأيى ، فهو فرار من الخطر .. وقد صارت المخاطر نادرة فى حياتنا العصرية .

كارولين : يخيل الى أن نساء هذه الأيام يجعلن هدف حياتهن الوحيد : اللعب دائما بالنار !

الونبى : الفائدة الوحيدة للعب بالنار هى حماية المرأة من الاحتراق ، فان الجاهلات به هن اللواتى يحترقن !

ستنفيلد : النساء مظلومات فى هذه الدنيا .. كأن الدنيا خلقت للرجال وحدهم !

ألونبى : أنت مخطئة ، فنحن نستمتع بالحياة أكثر منهم ، لأن الأمور المحرمة علينا أكثر من الأمور المحرمة عليهم !

• **وهنا يدخل مستر « كيلفل » عضو البرلمان ، فتبتدره كارولين :**

كارولين : على فكرة ، هل أنت فى صف اعطاء المرأة حق الانتخاب واشراكها فى السياسة يامستر كيلفل ؟

كيلفل : ان ازدياد نفوذ النساء هو من أكثر الظواهر المطمئنة فى حياتنا السياسية ، فالنساء دائما ينتصرن للاخلاق الفاضلة .. سواء فى الحياة العامة أو الخاصة ..

هنستانتون (لكارولين) : على ذكر هذا ، أتعلمين ياعزيزتى أن اللورد الينجورث لايؤمن بفضيلة النساء ؟

ستنفيلد : العالم كله يقول ان اللورد رجل سيىء السيرة !

لورد النجورث (وهويقبل على الجماعة فيسمع العبارة الأخيرة): أى عالم هذا الذى يقول عنى ذلك ياليدى ستنفيلد ؟ لابد أنه العالم الآخر .. فانى وهذا العالم على تفاهم تام ! **(يجلس بجوار مسز ألونبى)**

ستنفيلد : كل الذين أعرفهم يقولون انك سيىء السيرة !

النجورث : ما أفظع ما اعتاده الناس هذه الأيام من أن يقولوا عن الشخص فى غيبته ، الحقائق بحذافيرها !

هنستانتون : ان عزيزنا اللورد النجورث رجل ميؤوس من

اصلاحه ياليدى ستتفيلد .. وعلى فكرة ، نسيت أن أشكرك يا لورد على صنيعك مع جيرالد أربثنوت ، فانه شاب رائع ، وأمه من أعز صديقاتى .. لقد خرج منذ برهة فقط مع الامريكية الحسناء ..

كارولين : آها !.. لست أدرى لم لاتبقى هؤلاء الأمريكيات فى بلادهن .. يقولون أنها فردوس النساء !

النجورث : وهى كذلك بالفعل .. ولهذا السبب فانهن ، مثل حواء ، يتلهفن على الفرار منها !

● **وينهض اللورد مع مسز ألونبى بعد حين ، فتسألها ربة القصر :**

هنستانتون : هل أنت ذاهبة يامسز ألونبى ؟

ألونبى : الى الطرف الآخر من الحديقة فقط ، فقدأنبأنىاللورد هذا الصباح بأنه رأى هناك زهرة لها اغراء الخطايا السبع !

● **ويبتعد الاثنان ، بينما يدنو شخص يدعى لورد « ألفريد » ، فيجلس بجوار ليدى ستتفيلد ، التى تجاذبه أطراف الحديث :**

ستتفيلد : ما أجمل هذه السجاير ذات الفم المذهب يالورد !

ألفريد : انها غالية الثمن جداً ، بحيث لا أستطيع شراءها الا حين أكون مثقلا بالديون !

ستتفيلد : لابد أنه أمر فظيع أن يكون المرء مدينا !

ألفريد : لابد للانسان من عمل يشغل به وقته على أى حال ، ولولا ديونى لما وجدت شيئا أفكر فيه ..!

هنستانتون : آه ، هذا خطاب من العزيزة مسز اربثنوت **(تقرأ الخطاب)** انها لن تحضر للعشاء لكنها ستأتى لقضاء السهرة .. لكم أنا مسرورة بذلك . انها من أظرف النساء ، تجمع بين رقة الأنوثة وطيبة القلب ..

● **يقترب منها الخادم ويهمس لها بأن الشاى قد أعد فى « الصالون الأصفر » ،**

فتدعو ضيوفها الى ان يتبعوها .. ويهم سير « جون » بان يحمل معطف ليدى ستتفيلد ، لكن زوجته كارولين تحدجه بنظرة شذراء فيتراجع !.. ويبتعد الكل بينما يدنو لورد النجورث ومسز الونبى :

الونبى : من العجيب أن غير الجميلات يغرن على أزواجهن أكثر من الجميلات !

النجورث : ذلك لأن الجميلات لاوقت لديهن للغيرة ، فهن دائما مشغولات بالغيرة على أزواج غيرهن !

الونبى : كنت أحسب أن ليدى كارولين قد ملت الغيرة الزوجية فى مثل سنها ، سيما وأن سير جون هو زوجها الرابع ! **(تلمح جيرالد وهستر يدخلان لتناول الشاى)** ان جيرالد فتى ظريف حقا ، لكنى لا أهضم الأمريكية التى معه . لقد جرؤت فقالت لى امس ، وبصوت عال ، ان سنها ثمانية عشر سنة فقط .. يالها من أكذوبة مثيرة !

النجورث : يجب أن لايثق المرء قط بالمرأة التى تفصح عن سنها الحقيقية .. فالتى تكشف للرجل سنها ، تكشف له كل شىء !

الونبى : والذى يغيظنى منها أكثر ، اعتدادها بفضيلتها وزهدها !

النجورث : لست أومن بوجود نساء زاهدات ، بل أعتقد أنه ما من امرأة على الأرض لايغرها الثناء والغزل ، وهذا سر جاذبية النساء !

الونبى : انت لاتؤمن اذن بوجود المرأة التى ترفض القبلة ؟

النجورث : أكاد أجزم بأنها نادرة الوجود !

الونبى : وأنا بدورى أجزم بأن هستر لن تسمح لك بتقبيلها !

النجورث : وماذا ترينها فاعلة اذا قبلتها ؟

الونبى : تتزوجك ، أو تصفعك ! وأنت ، ماذا تفعل لو صفعتك ؟

النجورث : قد أقع فى هواها ..!

الونبى : اذن فمن حسن الحظ أنك لن تقبلها ..

النجورث : أهذا تحد ؟ ألا تعلمين أنى أنجح فى كل ما أحاوله ؟

ألونبى : يؤسفنى أن أسمع هذا ، فنحن النساء نعبد الفاشلين . انهم يتكئون علينا .

النجورث : بل أنتن تعبدن الناجحين ، وتتعلقن بهم ..

ألونبى : نحن أكاليل الغار التى تتوج هاماتهم ، وتخفى صلعتهم !

النجورث : وهم يحتاجون اليكن دائما ، الا فى ساعة انتصارهم !

ألونبى : هناك شىء واحد سأظل معجبة بك دائما من أجله .

النجورث : شىء واحد فقط ؟ لكن لى صفات سيئة كثيرة ؟ وماهو هذا الشىء ؟

ألونبى : هو أنك لم تغازلنى قط ..!

النجورث : وهل فعلت يوما غير ذلك ؟

• يدخل الخادم ليدعوهما الى الصالون الأصفر ، فيجيبه اللورد بأنهما ذاهبان ، وفيما هما يتجهان نحو السلم يلمح اللورد خطاب مسز أربثنوت على المنضدة فيتناول المظروف ويتأمل خطه ، ثم يتمتم : « عجبا ، انه يذكرنى بخط امرأة عرفتها فى السنين الخوالى ! »

ألونبى : من هى ؟

النجورث : أوه ، امرأة لا وزن لها .. **(ويلقى بالخطاب على المنضدة ثم يصعد سلم الشرفة مع مرافقته ، وهما يتبادلان الابتسام)**

الفصل الثانى

غرفة الاستقبال بقصر هنستانتون ، بعد العشاء .. الأنوار مضاءة ، والنساء مسترخيات على الأرائك يثرثرن ..

ألونبى : أية راحة فى أن نتخلص من صحبة الرجال بعض الوقت!

ستتفيلد : نعم .. فى الواقع ان الرجال يطاردوننا بصورة مزعجة .

ألونبى : يطاردوننا ؟.. ليتهم يفعلون !

هنستانتون : أوه ، ياللجرأة !

ألونبى : المزعج حقا أن الخبثاء يستطيعون أن يكونوا سعداء تماما بغيرنا !

ستتفيلد : الرجال قساة القلوب ، يعرفون قوتهم ويستغلونها !

كارولين : بل نحن اللواتى لانعرف كيف نضعهم فى مكانهم المناسب

ألونبى : وماهو مكانهم المناسب ؟

كارولين : أن يعتنوا بزوجاتهم ...

ألونبى : حقا ؟ واذا كانوا غير متزوجين ؟

كارولين : المشاهد أنهم فى هذه الحالة يعتنون بزوجات غيرهم! انه لأمر فاضح حقا عدد العزاب الذين يعيشون فسادا فى المجتمع . كان يجب أن يسن قانون يجبرهم جميعا على الزواج فى خلال سنة !

ستتفيلد : واذا كانوا يحبون امرأة مرتبطة برجل آخر مثلا ؟

كارولين : عندئذ يجب تزويجهم فى ظرف أسبوع من امرأة قبيحة الخلقة لاعطائهم درسا فى وجوب عدم المساس بممتلكات الآخرين !

هنستانتون : أتعتقدين يا عزيزتى أن القوانين تصلح هذه الأمور ؟ ان الذى الاحظه أن المتزوجين يعيشون فى هذه الأيام كالعزاب ، والعزاب كالمتزوجين !

ستنفيلد : وأنت يامسز ألونبى ، ألم تصفحى بعد عن زوجك؟ ترى ماذا كان الذنب الذى فعـله ، هل أهانك فى نوبة غضب بكلمة جارحة ؟

ألونبى : أوه ، كلا .. « ارنست » هادىء للغـاية ، وهدوؤه أحد الأسباب التى تجعله يثقل على أعصابى دائمـا . ما من شىء يثير المرأة الحساسة مثل هدوء الرجل وبلادته !

ستنفيلد : لكنك لم تذكرى الذنب الذى ارتكبه زوجك ؟

ألونبى : حسنا ، سأذكره لكن ، اذا وعدتننى بأن تذكرنه لكل من تصادفن !.. عندما خطبنى أرنست أقسم لى وهو راكع على ركبتيـه أنه لم يحب امرأة قبلى قط . وكنت صغيرة ساذجة فلم أصـدقه ، ولم أقم لسوء الحظ بأية تحريات فى هذا الصـدد .. حتى تزوجت ، وانقضت أشهر ، اكتشفت بعدها أن ماقاله لى كان الحقيقة بحذافيرها ، وهو أمر يجعل الرجل غير شائق بالمرة ..!

هنستانتون : ياللهول !.. ماهذا الذى تقولين ؟

ألونبى : الرجال يحرصون دائمـا على أن يكونوا حب المرأة الأول ، وهذا يرضى غرورهم .. أما نحن النسـاء فغريزتنا تجعلنا نفضل أن نكون حب الرجل الأخير !

هنستانتون : أتعنين أنك ترفضين الصفح عن زوجك لأنه لم يحب امرأة قبلك ؟.. انه لأمر يدهشنى !

كارولين : لاشىء ينبغى أن يدهشنا هذه الأيام سوى الزيجات السعيدة .. انها تزداد ندرة بشكل واضح .

ألونبى : أوه ، انها لم تعد تلائم روح العصر !

ستنفيلد : الا بين الطبقات المتوسطة ..

كارولين : هذا اطراء لتلك الطبقات على أية حال ، فممايؤسف

له حقا أن تكثر فى طبقتنا الزوجات الطائشات ، المسؤولات فى رأيى عن فشل عدد كبير من الزيجات التى نعرف كلنا قصصها.

ألونبى : أما أنا فلست أعتقد أن لطيش الزوجة دخل فى الأمر فان أكثر الزيجات تفشل هذه الأيام بسبب تعقل الأزواج أكثر من أى شىء آخر .. والا فكيف يمكن أن تسعد امرأة مع رجل يصر على معاملتها كما لو كانت مخلوقا كامل العقل والادراك ؟!

هنستانتون (مستنكرة) : مسز ألونبى !

ألونبى : الرجل ينتسب الى جنس تميز بعقله منذ آلاف السنين ، فهو لايملك من أمر ذلك شيئا .. أما تاريخ النساء فمختلف . لقد كنا على الدوام عنوانا للاحتجاج الصارخ على وجود العقل الراجح والتمييز السليم . لقد أدركنا مخاطرهما منذ البداية !

ستتفيلد : الواقع أن رجاحة عقل الأزواج شىء متعب للغاية .. وبهذه المناسبة : ماصفات الزوج المثالى فى نظرك ؟

ألونبى : الزوج المثالى ؟ هذا شىء لايمكن وجوده ، التعبير ذاته خاطىء !

ستتفيلد : اذن فليكن السؤال : من هو « الرجل » المثالى بالنسبة للمرأة ؟

ألونبى : الرجل المثالى هو الذى يخاطبنا كما لو كنا آلهة ، ويعاملنا كما لو كنا أطفالا !.. هو الذى يرفض كل مطالبنا الجدية ، ويرضى كل نزواتنا ! .. هو الذى يشجعنا على أن تكون لنا أهواء ، ويمنعنا من أن تكون لنا رسالات !.. هو الذى يقول دائما أكثر مما يعنى ، ويعنى دائما أكثر مما يقول !.. اذا سألناه فى أى موضوع ، أجابنا عن موضوع واحد : هو أنفسنا !.. وهو ينبغي أن يكون دائما على استعداد لأن يمتدحنا

من أجل الصفات التى يعلم أنها ليست فينا ، ويوبخنابلاشفقة على الفضائل التى لم نحلم يوما بتوفرها فينا ! .. وأخيرا فالرجل المثالى ينبغى أن لايؤمن قط بأننا نعرف قيمةالأشياء النافعة ، فهذا فى نظره ذنب لا يغتفر ، ومن أجل ذلك فعليه أن يمطرنا بكل شىء لانريده ..!

كارولين : اذن فليس عليه غير دفع الفواتير واغداق المديح !

ألونبى ، مستمرة : انه ينبغى أن يهيننا فى اصرار أمام الملأ ، ويعاملنا بالاحترام الكامل على انفراد !.. وعليه أن يكون مستعدا على الدوام لأن يشتبك معنا فى مشاجرة رهيبة كلما أردناها .. وان ..

كارولين (مقاطعة) : لكنك لم تذكرى المكافأة التىينالها الرجل المثالى منا ؟

ألونبى : مكافأته ؟ لاشىء غير الانتظار اللانهائى . هذا يكفيه تماما ! وعلى المرأة أن لا تستسلم له قط ، الا اذا أرادت طبعا أن تسأمه !

• وهنا تتنبه ربة الدار فجاة الى وجود الفتاة الأمريكية فى ركن منزو من المكان ، وتخشى أن تكون قد سمعت هذه الآراء الكفيلة بان تصدم مشاعرها البريئة ، فتمضى اليها وتجاذبها الحديث كى تزيل أثر ما قد تكون سمعته :

هنستانتون : قيل لى أن عندكم فى أمريكا مجتمعا بهيجا ؟

هستر : المجتمع الأمريكى الحقيقى يتألف من نسائنا الفضليات ورجالنا الأفاضل ..

هنستانتون : أخشى أن يكون عندنا فى انجلترا كثير من الفوارق الاجتماعية المصطنعة ، فنحن لانختلط الاختلاط الكافى بالطبقات المتوسطة والوضيعة .

هستر : ليست عندنا فى امريكا طبقات وضيعة !

كارولين : يظهر أنه تنقصكم فى امريكا أشياءكثيرة ، فقدسمعت

أن ليس فى بلادكم خرائب ولا تحفا وطرائف ..!

ألونبى : هراء !.. فعندهم أمهاتهم وعاداتهم !

هستر : ان الارستقراطية الانجليزية تمدنا بتحفنا وطرائفنا من الرجال الذين يشحنون الينا فى السفن كل صيف ، ويطلبون يدنا غداة وصولهم الى بلادنا !.. أما عن الخرائب فنحن نسعى كى نبنى صرحا يبقى على مر الأجيال أكثر من الطوب والأحجار !

هنستانتون : آه ، تقصدين صرح « المعرض الحديدى » الذى تشيدونه ؟

هستر : نحن نسعى كى نبنى الحياة ذاتها على أساس أفضل وأصدق وأنقى من أساسها الذى ترتكز عليه هنا فى انجلترا يا ليدى هنستانتون .. انكم تنبذون عن مجتمعكم كل ما هو طيب ولطيف ، وتسخرون من كل ماهو طاهر وبسيط ، كى تعيشوا على أكتاف الآخرين ، وبفضلهم !.. انتم تستهزئون بالتضحية ، واذا ألقيتم الى الفقير يوما بلقمة خبز فانما لكى تستريحوا من ازعاجه اياكم ردحا من الزمن !. ومع كل ابهتكم وثروتكم وفنكم فانكم لاتعرفون كيف تعيشون . لا تحبون الا الجمال الذى ترونه وتلمسونه ، وتتلفونه !.. أما الجمال غير المنظور للحياة ، للحياة الأسمى ، فلا تعرفون عنه شيئا . ان مجتمعكم الانجليزى فى نظرى مجتمع سطحى ، أنانى ، غبى . مجتمع قد أعمى عينيه وأصم أذنيه ، بيديه !.. انه أشبه بالمجذوم المتدثر بالقرمز ، والميت الموشى بالذهب .. انه كله خطأ فى خطأ !

هنستانتون : ياعزيزتى مس ورسلى ، لقد حسبتك معجبة بالمجتمع الانجليزى ، فلقد ظفرت فيه باعجاب خيار القوم ، وأطراك لورد « هنرى ويستون » بعبارات تحسدين عليها ،

وهو الحجة فى الجمال كما تعلمين !

هستر : اللورد هنرى ؟ انى أذكره جيدا ، ذلك الرجل ذا الابتسامة الكريهة والماضى الكريه !.. انه يدعى الى كل مكان ، بدونه لاتكتمل حفلة أو مأدبة عشاء ، ولكن ماقولك فى الضحايا الذين كان سبب دمارهم ؟ انهم منبوذون ، لايحملون أسماء ينتسبون اليها . اذا لقيتهم فى الطريق أشحت بوجهك عنهم فى ازدراء !.. ليس معنى ذلك أنى أحتج على العقاب الذى حاق بهم ، فان كل امرأة خاطئة يجب فى رأيى أن تلقى جزاءها .

● **تبدو مسز أربثنوت مقبلة من باب الشرفة الخلفى البعيد ، فتجفل لدى سماعها العبارة الأخيرة ، لكنها تتمالك نفسها .. بينما تستطرد الأمريكية :**

هستر : نعم ، فلتتحمل المرأة الخاطئة جزاء فعلتها ، ولكن ليس من العدل أن تعاقب بمفردها .. فليصحبها شريكها فى الاثم الى صحراء النفى الاجتماعى كى يتبادلا حبهما أو بغضهما كما يشاءان !. ليوصم الاثنان بوصمة ظاهرة على جبينهما ، اذا أردتم ، ولكن لاتعاقبوا أحدهما وتتركوا الآخر حرا طليقا !.. لا يكونن عندكم قانون للرجال وقانون آخر مخالف للنساء . انكم تظلمون النساء وسوف تظلون تظلمونهن حتى تقروا بأن العار الذى يشين المرأة ينبغى أن يشين الرجل أيضا مثلها ..!

هنستانتون (تلمح مسز أربثنوت قادمة فتخف لاستقبالها مرحبة) : أهلا أهلا ياعزيزتى ، يسرنى أنك حضرت لتسمعى صديقتنا الأمريكية الشابة تصف لنا شرورنا !

هستر : أخشى أن أكون تكلمت بشىء من العنف ، ولكن ...

هنستانتون (مقاطعة) : كلا يافتاتى العزيزة ، فقد كان فى كلامك نصيب كبير من الصدق ، وان كنت قسوت على شقيق

كارولين ، لورد هنرى المسكين !

هستر : آسفة ياليدى كارولين ، لكنى لم أعلم أنه شقيقك ..

كارولين : بل ان الجزء الوحيد من كلامك الذى أوافقك عليه هو الذى تحدثت فيه عن أخى ، فانى أعتبره رجلا فاسد الخلق .. لكن العدل يقتضينى الاعتراف له بأنه لطيف المعشر ، وأنه يقتنى طاهيا من أحسن الطهاة .. وبعد عشاء شهى يستطيع المرء أن يغفر زلات أى انسان ، حتى لو كان من أقربائه!

هنستانتون (للامريكية) : تعالى ياعزيزتى أعرفك بمسز أربثنوت . انها من طبقة البسطاء الطيبين الذين عبت علينا أننا نقصيهم عن مجتمعنا .. والواقع أنها لاتزورنى الا نادرا ، لكن الذنب ليس ذنبى ..

● واذ ذاك تنتهز ليدى ستتفيلد ومسز ألونبى أول فرصة فتنسحبان من المكان الى الشرفة فى أنفة وتعال ، بحجة الاستمتاع بجمال النجوم !.. بينما تهنىء ربة القصر ضيفتها على اختيار اللورد النجورث لابنها سكرتيرا له ، وتسألها عما اذا كانت تعرف اللورد ، فتجيب بأنها لم تسمع حتى باسمه ، من فرط انزوائها عن المجتمعات !.. فتقول الليدى فى تعريفها به : « انه رجل رفيع المقام ، رغم أنه ما يزال فى حكم الشباب .. وهو لا يشتغل فى الواقع بأى عمل ، الأمر الذى تعتبره صديقتنا الأمريكية عارا لا يليق بأى انسان !.. ولست أعتقد أنه يهتم بالمشروعات الخيرية التى تشغل وقتك يا مسز أربثنوت ، ولكن لكل انسان بالطبع ميوله الخاصة .. »

ثم تمضى الليدى فى ثرثرتها ، فنعلم أن اللورد قد ورث لقبه الحالى منذ نحو أربعة أعوام ، بعد موت أبيه اللورد السابق ، أما قبل ذلك فكان يعرف باسم « جورج هارفورد » .. الخ .. وبعد حين يدخل الخادم معلنا قدوم قسيس الضاحية ، الذى لا يكاد يرى مسز أربثنوت حتى يرحب بها فى احترام ظاهر ، ويطرى تفانيها فى خدمة الفقراء والنهوض بمشروعات البر ، بل ويغبط ربة القصر على حظوتها بزيارتها !.. وفى هذه الأثناء تنفض جلسة الرجال « الانفرادية » التى بدأت فى حجرة الطعام بعد العشاء ، فيقبلون الواحد فى أثر الآخر .. وتعلق نظرات مسز أربثنوت باللورد النجورث ، الذى يمر فى أقصى

القاعة ، دون أن يتنبه اليها ، ليقف فى أحد الأركان مع مسز ألونبى وليدى ستتفيلد فيمازح الأولى بقوله :

النجورث : كيف حال « ملكة » الجاذبية النسائية فى العالم ؟

ألونبى (فى لباقة ، وهى تمسك بيد ستتفيلد) : كلانا بخير ، شكرا **(فى تهكم) :** ولكن لم غادرت حجرة الطعام بهذه العجلة ؟

النجورث : كنت محرجا فلم أستطع الفرار ، رغم شوقى الى اللحاق بكن منذ البداية ..

ألونبى : ليتك بكرت ، فقد كانت الأمريكية تلقى علينا « محاضرة » !

النجورث : حقا ؟ ان الأمريكيين جميعا مولعون بالقاء المحاضرات. أغلب ظنى أنها ظاهرة ناتجة عن طقس بلادهم ! وماذا كان موضوع محاضرتها ؟

ألونبى : « الفضيلة » طبعا ..!

النجورث : كم من المهلة تعطيننى كى « أهديها » ؟

ألونبى : أسبوعا ..

النجورث : انه أكثر من الكفاية !

• وهنا يدخل الشاب « جيرالد » ابن مسز أربثنوت ، فلا تكاد أمه تلمحه حتى تلح عليه فى أن يصحبها الى البيت ، متعللة بتعب مفاجىء ، لكن الشاب يحرص على أن يقدمها أولا الى رئيسه الجديد ، ورب نعمته ، اللورد النجورث .. فيتجه اليه من فوره ويقوده اليها .. واذ يلمحها اللورد ــ لأول مرة ــ يجفل مأخوذا ، لكنه يتمالك نفسه ويمضى نحوها .. وحين يقدم الفتى كلاهما الى الآخر تنحنى المرأة للورد فى فتور ، فيطالبها ابنها بان تشكره على صنيعه معه ، لكنها لا تجيبه الى طلبه الا بعبارة متكلفة غامضة !..

ثم يدور بين الثلاثة حديث قصير ، تبدى الأم خلاله ارتيابها فى أن يصلح ابنها للمركز الجديد !.. فيدهش جيرالد من لهجة أمه ، ويرجو من اللورد ان يقنعها بانه جاد فيما يعرضه عليه .. وهنا يستأذن اللورد ربة القصر وصديقاتها فى أن يتحدث الى مسز أربثنوت بضع لحظات ، فتجيبه ليدى هنستانتون : « آه ، طبعا .. ان عندك الكثير الذى ترغب فى أن تقوله لها وعندها هى الكثير الذى تشكرك به ، فليس كل شاب يجد هذه الفرصة الذهبية ! » .. ثم تمضى

الليدى مع ضيوفها الى قاعة الموسيقى ، بينما يبقى اللورد والأم على انفراد .. ولا تلبث ان تسمع من بعيد أنغام تعزف على الكمان :

اللورد : اذن فهذا هو ابننا ياراشيل ؟ لكم أنا فخور به ، ان كل شيء فيه ينطق بأنه ابنى .. ولكن ماسر اختيارك لاسم « أربثنوت » بالذات ؟

الأم : كل الأسماء تصبح سواء حين لايكون للمرأة حق فى أى اسم على الاطلاق !

اللورد : وما الذى أوحى اليك بتسميته « جيرالد » ؟

الأم : نقلا عن اسم الرجل الذى حطمت قلبه : أبى !

اللورد : ان مافات قد مات ياراشيل ، ولا خير فى بعث الماضى من مرقده ، كل ما أريد أن أقوله لك الآن اننى جد سعيد بابننا. ان الناس لن يعرفوا عنه بالطبع الا أنه سكرتيرى ، لكنه بالنسبة الى سيكون قريبا جدا الى قلبى ، عزيزا جدا على نفسى .. فانى الآن فقط شعرت أن حياتى كان ينقصها شيء : النسل!.. وقد وجدت ماينقصنى ، وجدت ابنى .. ولكم أنا مسرور بذلك!

الأم : انك لاتملك الحق فى المطالبة به ، أو بأضأل نصيب منه . انه ولدى وحدى ، وسيظل كذلك !

اللورد : يا عزيزتى راشيل ، لقد استأثرت به وحدك أكثر من عشرين عاما ، فلم لاتدعينى أحظى به الآن بعض الوقت ؟ انه ابنى كما هو ابنك !

الأم : أتعنى الابن الذى هجرته ، والذى كان يحتمل أن يكون قد مات من الجوع والفاقة ؟

اللورد : لعلك لم تنسى يا راشيل أنك أنت التى هجرتنى ؟

الأم : هجرتك لأنك رفضت أن تمنح الطفل اسما .. لقد طالما توسلت اليك ، قبل أن يولد ، أن تتزوجنى !

اللورد : لم يكن أمامى مستقبل مرموق وقتئذ ، فضلا عن أنى لم أكن أكبر منك سنا بكثير . كنت حدثا فى الثانية والعشرين أو أقل يوم بدأ الأمر كله فى حديقة بيت أبيك !

الأم : عندما يكون للانسان من السن مايسمح له بأن يرتكب الشر ، ينبغى أن تسمح له سنه أيضا بأن يفعل الخير !

اللورد : دعينا لانخرج عن الموضوع ياعزيزتى .. تقولين أنى تركت طفلنا معرضا للموت جوعا ، وهـذا قول سخيف وغير صحيح ، فلقد عرضت أمى عليك ايرادا سنويا قدره ستمائة جنيه ، لكنك أبيت قبوله بل أخذت الطفل واختفيت عن الأنظار!

الأم : ما كنت لأقبـل بنسا واحدا منها ، فانها لم تكن نبيلة فى شعورها نحوى مثل أبيك ، الذى صارحك فى حضورى بأن واجبك يحتم عليك الزواج منى !

اللورد : أوه ، ان الواجب هو ماينتظـره المرء من الآخرين ، وليس مايفعله هو .. والواقع أنى كنت تحت تأثير أمى ،وكل رجل يكون كذلك فى شبابه الباكر .

الأم : يسرنى أن أسمع منك ذلك ، فانى أعتقد أن جيرالد لن يخالف رغبتى ويسافر معك !

اللورد : أى هراء ياراشيل !

الأم : أو تحسبنى سوف أسمح لابنى ..

اللورد (مصححا) : لابننا كلينا ..

الأم : بل ابنى وحدى ! **(تستطرد)** .. بأن يعمل فى كنف الرجل الذى أفسد شبابى ، وحطم حياتى ، ولوث بالعار كل لحظة من أيامى وماضى ؟

اللورد : انى أعتبر مستقبل جيرالد أهم بكثير من ماضيك !

الأم : انه لن يستطيع أن يفصل مستقبله عن ماضى !

اللورد : بل ان هذا بالذات هو ماينبغى أن يفعله ، وأن تساعديه أنت على فعله .. انك تتكلمين بمنطق النساء التقليدى ، العاطفى ، الأنانى !.. راشيل ، أنا أريدك أن تنظرى الى المسألة من زاوية الادراك السليم ، الزاوية التى تحقق مافيه خير ابننا ، بغض النظر عنك وعنى .. فما هو مركزه اليوم ؟ انه موظف بسيط مغبون فى بنك اقليمى صغير فى بلدة من الدرجة الثالثة ، فاذا اعتقدت أنه سعيد قانع بعمله هذا فأنت على خطأ جسيم .

الأم : انه كان قانعا حتى التقى بك !.. أنت الذى أغريته بالتذمر .

اللورد : هذا صحيح ، لكن التذمر هو الخطوة الأولى فى طريق تقدم الأفراد أو الشعوب . وأنا لم أتركه يعانى عذاب الطموح الى أشياء فوق متناوله ، وانما عرضت عليه عرضا خلابا تعلق هو به على الفور ، كما كان خليقا بأى شاب فى مكانه أن يفعل !.. والآن ، لمجرد أن المصادفة شاءت أن أكون فى الوقت ذاته والد الفتى ، وهو ابنى ، أراك تسعين عامدة الى تدمير مستقبله ! أعنى أنى لو كنت غريبا عنه تماما لتركته يرحل فى ركابى ، أما وهو من لحمى ودمى فانك ترفضين .. أى منطق سقيم هذا !

الأم : لن أسمح له بالسفر معك !

اللورد : وكيف تمنعينه ؟ بأية حجة تغرينه على التفريط فى فرصة ذهبية كهذه ؟ انك لن تجرؤين طبعا على مصارحته بالحقيقة ، فان الأطفال يحبون والديهم فى البداية ، لكنهم اذا ماكبروا أدانوهم وصاروا قضاتهم العادلين الذين يندر أن يغفروا لهم !

الأم : جورج ، لا تأخذ ابنى بعيدا عنى .. لقد عشت عشرين سنة مريرة تشوبها الأحزان ، لم يكن لى خلالها من يحبنى وأحبه سواه .. فى حين عشت أنت حياة مترعة بالأفراح

والملذات والنجاح .. عشت سعيدا لاتنغصك حتى ذكرانا ، فما كان يوجد — طبقا لفلسفتك فى الحياة — سبب واحد يفرض عليك أن تذكرنا . وقد كان لقاؤنا الحالى محض مصادفة ، مصادفة رهيبة !.. فلتنسها ، ولاتأتى الآن فتسلبنى كل من بقى لى فى الحياة . انك واسع الثراء فى أشياء أخرى كثيرة ، فدع لى كرمة حياتى الصغيرة الوارفة . دع لى الحديقة المتواضعة وبئر الماء ، والحمل الذى أرسله الله الى فى فيض رحمته ، أو غضبه ، لست أدرى !.. أواه ، دعه لى بربك .. جورج ، لاتنتزع منى جيرالد !

اللورد : راشيل ، أنت لاتلزمين لمستقبل جيرالد فى الوقت الحاضر ، أما أنا فلازم له . وهذا كل ماينبغى أن يقال الآن فى هذا الموضوع !

الأم : لن أدعه يذهب !

اللورد : هذا هو جيرالد قد أقبل ، ومن حقه أن يقرر مصيره بنفسه !

● ويدخل جيرالد ، فتحاول أمه التأثير على رأيه باستدرار عاطفته البنوية كى يضعف عن فراق المخلوقة التى ربته ولازمته عشرين عاما .. لكنه يفحمها برد يفرق فيه بين عاطفته ومستقبله !.. فتحاول اقناعه بانه لا يملك المؤهلات التى تزكيه لشغل المنصب المعروض عليه !.. وهنا يحسم اللورد النقاش من هذه الزاوية جازما بصلاحية الفتى للمنصب ! ثم يتحدى الأم أن تذكر اى سبب آخر يدعوها الى المعارضة فى قبول ابنها للعرض المغرى .. وينضم الفتى الى اللورد فى تحدى أمه أن تفسر مسلكها الشاذ !.. وأمام هذا الحرج تجيبهما المرأة التعسة راغمة بأنها لا تملك غير الأسباب التى ذكرتها ! فيلتفت اللورد الى الشاب قائلا : « اذن ففى وسعنا يا ابنى أن نعتبر المسالة منتهية .. فتعال ندخن سيجارة فى الشرفة معا .. أما انت يا سيدتى فدعينى أصارحك بانك قد تصرفت تصرفا غاية فى الحكمة وسداد الرأى ! » .. ثم يخرج الرجلان ، بينما تبقى الأم بمفردها كتمثال جامد بلا حراك ، وعلى وجهها نظرة تنطق بالحزن الأخرس المفجع !.

الفصل الثالث

● **فاذا كان الفصل التالى فنحن فى قاعة الصور بقصر هنستانتون ، وقد استرخى اللورد الينجورث على كنبة ، وجلس جيرالد على مقعد فى مواجهته .. واسترسل الحديث بينهما حول تعقل مسز اربثنوت ورجوعها الى جادة الحق .. فيقول ابنها :**

جيرالد : ان أمى حية الضمير فى الواقع ، فهى تعتقد مخلصة أنى لست على درجة من العلم تؤهلنى لأن أكون سكرتيرك . ولعلها على حق ، فانى كنت بليدا للغاية أيام الدراسة ، فلم انجح يوما فى امتحان من أول مرة !

اللورد : الامتحانات نظام عقيم لانفع فيه ، لأنه ان كان الرجل « جنتلمانا » فهو يعرف الكفاية كى ينجح فى الحياة .. وان لم يكن فمهما تعلم فالعلم كفيل بأن يضره !

جيرالد : لكنى لا أزال جاهلا بالحياة يالورد النجورث .

اللورد : لا تخش شيئا يا ابنى ، ولتذكر دائما أنك تملك أعظم مؤهل فى الوجود يزكيك ، وأروع كنز فى الحياة : الشباب !.. لا شىء كالشباب !.. ليخيل الى أنى فى سبيل أن أسترد شبابى لن أحجم عن شىء .. اللهم طبعا الا أن أزاول التمرينات الرياضية وأستيقظ مبكرا ، أو أغدو عضوا نافعا فى المجتمع !

جيرالد : أو تعد نفسك متقدما فى السن يالورد النجورث ؟

اللورد : انى فى سن تؤهلنى لأن أكون أبيك !

جيرالد : أنا لا أذكر أبى ، لقد مات منذ بعيد . والعجيب أن أمى لا تحدثنى عنه قط ... لابد أنه كان دونها فى المرتبة .

اللورد (يجفل قليلا) : حقا ؟ **(يتجه نحو الشاب فيضع راحته على كتفه ثم يحول دفة الحديث)** ان حب الأم عاطفة تلمس القلب بلا نزاع ، لكنها كثيرا ما تنطوى

على الأنانية ! ان أمك امرأة طيبة للغاية ، لكن النساء الطيبات تكون آراؤهن فى الحياة ضيقة الأفق ، وشواغلهن تافهة .. فاذا أردت أن تعرف الحياة على حقيقتها ، لاكما تصورها النظريات البالية ، فأول ما ينبغى أن تفعله هو أن تعد نفسك لغشيان المجتمع .. فان الرجل الذى يسيطر بأحاديثه على مائدة عشاء فى العاصمة يستطيع أن يسيطر على العالم !

جيرالد : انى أتوق دائما الى أن أتأنق فى ثيابى ، لكنى كثيرا ما أسمع القول بأن الرجل ينبغى أن لايغالى فى ذلك .

اللورد : بهذه المناسبة دعنى أنصحك بأن تتعلم كيف تحسن عقد رباط رقبتك ، فان الرباط المعقود جيدا هو الخطوةالأولى الهامة فى الحياة !

جيرالد (ضاحكا) : قد أستطيع أن أتعلم ذلك ، لكنى لن أستطيع يوما أن أتحدث بمثل براعتك !

اللورد : أوه ، هذا سهل .. تحدث الى كل امرأة كما لو كنت تحبها ، والى كل رجل كما لو كان يضايقك ! بهذا تستطيع امتلاك ناصية آداب اللياقة فى المجتمع ..!

جيرالد : لكن النجاح فى المجتمع أمر عسير فيما يخيل لى ؟

اللورد : لكى ينجح الانسان فى المجتمع هذه الأيام ، يتعين عليه أن يطعم الناس ، أو يسليهم ، أو يصدمهم بآرائه !

جيرالد : أحسب أن الانخراط فى المجتمع متعة شائقة ؟

اللورد : انه شىء يثير السأم ، لكن الحرمان منه مأساة !.. فالمجتمع شىء ضرورى للانسان ، ومامن رجل ظفر بنجاح حقيقى فى هذه الحياة ما لم تكن هناك امرأة تحمى ظهره !.. النساء هن اللواتى يسيطرن على المجتمع .

جيرالد : هل من العسير حقا فهم النساء ؟

اللورد : لاتحاول قط أن تفهمهن .. النساء صور ، أما الرجال فهم مشكلات !.. فان أردت أن تعرف قصد امرأة ، فلاتصغى الى كلامها ، بل أنظر الى عينيها !.

جيرالد : لكن النساء ماكرات للغاية فيما أظن ؟

اللورد : هذا ماينبغى أن يقوله المرء لهن دائما !.. أما بالنسبة للفيلسوف فهن يمثلن انتصار المادة على العقل ، كما أن الرجال يمثلون انتصار العقل على الاخلاق !

جيرالد : كيف أمكن أن تكون للنساء هذه القوة الجبارة ؟

اللورد : ان تاريخ النساء هو تاريخ أسوأ أنواع الطغيان التى عرفها العالم ، طغيان الضعيف على القوى .. وهو الطغيان الوحيد الذى يدوم !

جيرالد : أغلب ظنى أنك لم تتزوج قط يا لورد النجورث ؟

اللورد : الرجال يتزوجون حين يتعبون ، والنساء يتزوجن بدافع الفضول .. والطرفان يصابان بخيبة أمل !

جيرالد : ولكن ألا تعتقد أن المرء يستطيع أن يسعد فى زواجه ؟

اللورد : بلاشك .. لكن سعادة الرجل المتزوج انما تستمد من المرأة التى لم يتزوجها !

جيرالد : وماذا لو كان الرجل عاشقا ؟

اللورد : ينبغى أن يظل المرء عاشقا على الدوام ، ومن أجل هذا يجب أن لايتزوج قط !

جيرالد : يخيل الى أن الحب شىء ممتع جدا ؟

اللورد : فى الحب يبدأ الانسان بأن يخدع نفسه ، ثم ينتهى بأن يخدع الطرف الآخر !

• وهنا تقبل ربة القصر وضيوفها ، وتدور بين الجميع أحاديث تافهة متنوعة ، حتى يعن لليدى ستنفيلد أن توجه الى اللورد سؤالا يجيب عليه بقوله :

اللورد : ان النساء يحببننا من أجل نقائصنا ، فاذا كان لدينا منها الكفاية غفرن لنا كل شيء ، حتى ذكاءنا !

هنستانتون : آه ، نحن النساء ينبغى أن نغفر كل شيء ، أليس كذلك يا مسز أربثنوت ؟ أنت لابد توافقيننى على هذا الرأى ؟

أربثنوت : مطلقا ، فهناك شيء يجب أن لانغفره قط !

هنستانتون : وماهو ؟

أربثنوت : تدمير حياة امرأة !

وتمضى مبتعدة فى بطء الى أقصى القاعة .. ولا تلبث مسز ألونبى أن تقترح على اللورد أن يخرجا الى الشرفة ليستمتعا بضياء القمر ، فيقول لها :

اللورد : هيا بنا ، فليس أحب الى من النظر الى أى شيء زائل .

ألونبى : فلتنظر الى نفسك فى المرآة !

اللورد : انها قاسية ، لاتريني غير تجاعيد وجهى .

ألونبى : أما مرآتى فأكثر أدبا ، انها لاتقول لى الصدق أبدا !

اللورد : اذن فهى واقعة فى هواك !

• ثم يخرجان الى القمر .. ويتفرق الباقون فى ردهات القصر ، بينما تنادى مسز أربثنوت ابنها لتطلب اليه أن يرافقها الى البيت ، فيستأذنها فى أن يودع اللورد أولا ، وينبئها بانه سيرحل معه الى الهند فى نهاية الشهر . ولا يكاد يبتعد حتى تهمس لنفسها وهى تذرع المكان حائرة يائسة : « فليفارقنى ابنى كما يحلو له ، ولكن ليس معه ، ليس معه !.. لن أحتمل ذلك ! » ..

وفى هذه الأثناء تدخل هستر الحجرة فتتودد الى الأم وترجو منها أن تتخذها صديقة لها : « فانك جد مختلفة عن الأخريات !.. عندما دخلت حجرة الاستقبال الليلة أحسست كأنك جلبت معك شعاعا يمثل كل ما هو طيب وطاهر فى الحياة ! » .. ثم يدور بين المرأتين حديث تعرب فيه الفتاة الأمريكية عن رأيها فيما يتصل بزلات النساء ، ووجوب معاقبة المرأة الخاطئة واقصائها عن مجتمعات أفاضل الناس ، هى وشريكها فى الاثم .. بل وتذهب الى أن خطايا الآباء ينبغى أن يعاقب عليها الأبناء « فتلك هى الشريعة العادلة .. شريعة الله ! ».

ثم تأخذ هستر فى تحريض مسز أربثنوت على مطالبة جيرالد بالتخلف

عن السفر : « فان المنصب والمال ليسا كل شيء » .. وتخرج متحمسة لتناديه كي تفاتحه أمه فى الأمر ، لكنها لا تكاد تذهب من باب حتى يدخل الشاب من باب آخر ، فتناشده أمه متوسلة :

الأم : جيرالد ، لاتذهب مع اللورد النجورث .. أستحلفك أن لاتفعل .. جيرالد ، أتوسل اليك !

الابن : ما أكثر تقلبك يا أماه ! منذ ساعة واحدة وافقت على المشروع كله ، والآن تعودين فتحاولين ارغامى على نبذ فرصتى الوحيدة فى الحياة !.. انه ليدهشنى ، وقد واتانى الحظ النادر على هذه الصورة ، أن تكون أمى هى المخلوق الوحيد الذى يبذر العراقيل فى طريقى ..!

● **ثم يبوح الفتى لامه بانه يحب « هستر ورسلى » ، وأن حبه هذا هو أقوى ما يغريه بقبول المنصب المعروض عليه ، كى يكون له مستقبل مرموق يشجعه على التقدم الى الفتاة .. لكن أمه تجيبه بان من الخير له أن يطلق آماله فى الأمريكية الحسناء ، فان آراءها فى الحياة تقطع بانها لا يمكن أن ترضى به زوجا !.. ورغم ذلك يستطرد الشاب :**

جيرالد : على أية حال فلسوف يبقى لى طموحى ، الذى طالما حاولت يا أماه أن تسحقيه .. ألم تقولى لى فى كل مناسبة أن الدنيا حافلة بالشرور ، والمجتمع سطحى تافه ، والنجاح فى الحياة لايستحق عناء الوصول اليه ؟ لكنى لا أصدق شيئا من هذا ، بل أعتقد أن الدنيا لابد أن تكون ممتعة ، والمجتمع شائقا ، والنجاح جديرا بكل متاعبه ! لقد كنت على خطأ فى كل ما علمتنى يا أماه .. وانى لأبذل راضيا أى ثمن لو أتيح لى أن أغدو يوما مثل لورد النجورث !

الأم : لخير لى أن أراك جثة هامدة !

الابن : أماه ، هلا صارحتنى بسبب بغضك للورد النجورث ؟

الأم : انه رجل فاسد !

الابن : من أية ناحية ؟ لست أفهمك . صارحينى بكل شىء وأنا أعدك بالعدول عن السفر معه اذا كان قد ارتكب أى فعل شائن !

الأم : جيرالد ، اقترب منى ، التصق بى كما اعتدت أن تفعل فى صباك (**يجلس الى جوارها ، فتمشط بأناملها شعره وتربت على يديه**) جيرالد ، دعنى أقص عليك قصة : كانت توجد فتاة ، فى زهرة الشباب ، لم تكدتجاوز الثامنة عشرة . .التقت يوما بجورج هارفورد — كما كان اللورد النجورث يدعى وقتذاك — ولم تكن تعرف عن الحياة شيئا ، بينما كان هو يعرف كل شىء !.. فأغراها بأن تحبه ، وتتدله فى حبه فتفر معه من بيت أبيها ذات صباح !.. وكان قد وعد جادا بأن يتزوجها ، فصدقته . كانت ساذجة غريرة ، جاهلة بحقائق الحياة ! لكنه راح يرجىء فكرة الزواج أسبوعا بعد أسبوع ، وشهرا بعد شهر .. ومع ذلك ظلت على ثقتها به ، فقد كانت تحبه أعمق الحب وأخلصه . وقبل أن يولد الطفل — طفلهما ! — توسلت اليه ضارعة أن ينفذ وعده فيتزوجها ، كى يولد الطفل وهو يحمل اسما ، وحتى لا تلقى خطيئتها ظلها المشؤوم على مستقبل الوليد ، البرىء .. لكنه رفض !.. فلما وضعت حملها أخذت وليدها فى أحضانها وهجرت الرجل الذى دمر حياتها ، ودمر نفسيتها ، ودمر كل ما كان عذبا نقيا طيبا فيها ! ومنذ ذلك التاريخ عاشت تتعذب ، وما تزال تتعذب ، وسوف تظل كذلك حتى آخر العمر .. فبالنسبة لها لا يوجد فرح ، ولا سلام ، ولا تكفير .. انها امرأة تجرجر أغلالها كالسجين نزيل الليمان ، وتضع على وجهها قناعا كالأبرص !.. النار لا تستطيع أن تطهرها ، والمياه تعجز عن أن تطفىء عذابها. لا شىء يمكن أن يبرىء جرحها ، ولا مخدر يقوى على أن يمنحها

النعاس ، أو النسيان !.. انها روح ضائعة ، تائهة ، ضالة !.. هذا يا ابنى هو السبب الذى يجعلنى أصف اللورد النجورث بانه رجل فاسد ، وأربأ بابنى أن يلازمه ...

جيرالد : انها قصة مفجعة بلاشك يا أماه ، لكنى أعتقد أن بطلتها تستحق اللوم مثل اللورد سواء بسواء !.. فمهما يكن من أمر فان الفتاة العفيفة الكريمة الخلق لاتفر من بيت أبيها مع رجل لايربطها به زواج ، ولا تعيش معه كما لو كانت زوجته !.. انها فعلة لاتقدم عليها فتاة طاهرة .

الأم (بعد فترة اطراق وتفكير) : جيرالد ، انى أسحب اعتراضى . ولك ملء الحرية فى أن تصحب اللورد النجورث الى حيث تشاء ..

جيرالد : أمى العزيزة ، كنت أعلم أنك لن تقفى فى طريق مستقبلى . انك خير امرأة خلقها الله . أما عن اللورد النجورث فلست أصدق أنه يرتكب فعلة وضيعة دنيئة كالتى رويتها لى . لا يمكن أن أصدق ذلك ...



هستر (تصيح من الخارج) : دعنى !.. دعنى ! **(ثم تدخل مذعورة فتندفع نحو جيرالد وتلقى بنفسها بين ذراعيه هاتفة) :** أواه ، انقذنى .. انقذنى منه !

جيرالد : ممن ؟

هستر : لقد أهاننى .. اهانة فظيعة .. انقذنى !

جيرالد : ممن؟ من الذى أهانك ؟ من الذى جرؤ ..

● يبدو اللورد النجورث مارا أمام الباب من بعيد فتنتزع الفتاة نفسها من بين ذراعى الشاب وتشير اليه .. فيندفع جيرالد نحو اللورد وهو فى حالة من الثورة والهياج لا توصف ، ويصرخ فى وجهه : « لورد النجورث ، انك قد أهنت أطهر مخلوقات الله على الأرض ، أهنت امرأة فى طهارة أمى .. أهنت المرأة التى أحبها مع أمى أكثر من جميع البشر .. وأقسم بربى أنى سأقتلك ! ».. لكن الأم تهرول نحو ابنها فزعة وتمسك به صائحة : « كلا .. كلا ! » فيحاول أن يدفعها عنه صارخا : « اليك عنى يا أماه .. لا تمنعينى .. سأقتله ! » لكنها تمضى فى صياحها جزعة : « جيرالد !.. جيرالد ! » واذ يتخلص من قبضتها ويهم بالانقضاض على اللورد لينفذ وعيده ، تصرخ فى وجهه يائسة : « قف ! جيرالد !.. قف !.. انه أبوك !! » .

وتنقض الكلمة على الفتى كالصاعقة ، فيمسك بيدى أمه فى عصبية ويحدق فى وجهها ، فتتهاوى فى بطء على الأرض منسحقة تحت وطأة عارها !.. بينما تتسلل هستر فى سكون نحو الباب .. ويقطب اللورد وجهه ويعض شفتيه .. وبعد لحظات يعين جيرالد أمه على النهوض ويحيط خصرها بذراعه ثم يقودها صامتا الى الخارج ..!

الفصل الرابع

فاذا كان الفصل الأخير فنحن فى صباح اليوم التالى ، فى حجرة الاستقبال بمنزل مسز أربثنوت ، وفى المؤخرة نافذة تطل على الحديقة .. وقد جلس جيرالد الى منضدة فى ركن الحجرة يكتب .. تدخل خادمة تعلن قدوم ليدى هنستانتون ومسز الونبى ، فيستقبلهما الشاب مرحبا .. ويدور حديث نفهم منه أن المراتين قد جاءتا تستفسران عن صحة أمه ، التى انصرفت فى المساء على غير انتظار على اثر المشهد السابق ، متعللة بتعب مفاجىء !

وتجيل مسز الونبى بصرها فى الحجرة فتلاحظ أنها « نموذج للبيت الهادىء السعيد ! » وتوافقها زميلتها قائلة : « هذا بالضبط ما يحسه الزائر هنا .. ان أكثر النساء لا يزين صالوناتهن فى هذه الأيام الا بالازهار الصناعية ، والرجال الأجانب ، والقصص الفرنسية !.. أما هنا فكأننا فى محراب قديسة : ازهار طبيعية نضرة ، وكتب لا تصدم المشاعر ، وصور يستطيع الانسان أن ينظر اليها دون أن يحمر وجهه خجلا !..

ثم يتشعب الحديث فتسأل المرأتان جيرالد عن موعد سفره الى الهند فى صحبة اللورد النجورث .. واذ يفاجئهما الفتى بنبأ عدوله عن قبول المنصب المعروض عليه ، بحجة عدم صلاحيته له ، تبدى كلاهما دهشتها وانكارها ، وتراجعانه فى قراره :

هنستانتون : لكنك فى صحبة اللورد سوف ترى الدنيا ..!

جيرالد : لست أريد أن أراها .. لقد رأيت منها الكفاية !

هنستانتون : وهل توافقك أمك على هذا القرار ؟ أغلب ظنى أنها لن تقوى على المعارضة فى بقائك الى جوارها ، فاننا نحن النساء ضعيفات ، نحكم قلوبنا أكثر من عقولنا . ولو كان أبوك حيا لما سمح لك بالتفريط فى هذه الفرصة الذهبية لمستقبلك !

● وهنا تدخل الخادمة فتنبىء الضيفتين بأن سيدتها لن تستطيع استقبالهما بسبب صداع شديد ألم بها ، فتحملان جيرالد تحياتهما الى أمه ثم تنصرفان .. ويعود الفتى الى المنضدة فيقرأ ما كتبه ، ويحدث نفسه : « بأى اسم أوقع الخطاب ؟.. وأنا الذى لا اسم لى ؟ » ثم يوقعه ممرور النفس ويضعه فى الظرف تمهيدا لارساله .. وفى هذه اللحظة تدخل أمه فيقول لها أنه قد كتب الى أبيه يدعوه الى الحضور فى الساعة الرابعة بعد الظهر :

الأم : لن أسمح له بأن يطأ عتبة بيتى !

الابن : بل انه يجب أن يأتى . لقد كتبت اليه أقول ...

الأم : ماذا عندك لتقول له ؟

الابن : كتبت اطالبه بأن يتزوجك فورا !

الأم : أجننت ؟

الابن : أماه ، سوف أجبره على أن يصلح الخطأ الذى اقترفه . لابد من التكفير ! قد تكون العدالة بطيئة يا أماه ، لكنها تأخذ مجراها فى النهاية ، ولن تمضى أيام حتى تصبحين زوجة اللورد النجورث الشرعية ! انه لن يجرؤ على الرفض ..!

الأم : لكنى أنا التى أرفض .. لن أتزوج اللورد النجورث !

الابن : ولكن ، الا تفهمين انى أريد ذلك من أجلك أنت يا أمى ؟ انه بذلك يعوضك ولو تعويضا ضئيلا عما أصابك !

الأم (منفجرة) : تتحدث عن التعويض ؟ ما من شىء يمكن أن يعوضنى عما أصابنى أو يكفر عن اساءته !.. انى قد جللت بالعار ، أما هو فلم يصبه من العار شىء . هذا أهم ما فى الأمر ! انها القصة المألوفة للرجل والمرأة كما تحدث دائما : المرأة تقاسى أمر العذاب ، والرجل ينجو من كل عقاب !..

الابن : لكن القصة لن تنتهى هكذا هذه المرة . لابد من التكفير!

الأم : انى أرفض الزواج من اللورد النجورث !

الابن : حتى لو جاءك بنفسه يسألك أن تكونى زوجته ؟ لاتنسى أنه أبى !

الأم : لو جاءنى يطلب يدى ، وهو لن يفعل ، فسيكون جوابى نفس الجواب ... لا تنس أنى أمك !

الابن : اماه ، انك تزيدين موقفى حرجا . هذا الزواج يجب أن يتم ، كيما ينزع المرارة من حياتك ويزيل الوصمة التى تلقى

ظلها على اسمك .. لامفر من ذلك ، وبعدئذ نستطيع أن نستقل بحياتنا أنت وأنا كما نحن الآن . انه واجب أنت مدينة به ، لا لنفسك فقط ، وانما لجميع النساء ، كي يكف المجرم عن الايقاع بضحايا أخريات !

الأم : لست مدينة لغيرى من النساء بشيء ، فليست بينهن من أطمع فى أن اظفر بمحبتها ، بله شفقتها — اذا كان لى أن أقبل الشفقة من أحد !.. النساء قاسيات على بعضهن البعض .. أو لم تر كيف عمدت الأمريكية ، رغم طيبتها ، الى التسلل من الغرفة ليلة أمس .. كما لو كنت وباء ملوثا يفر الأصحاء منه؟ لكنها كانت على حق ، فانى امرأة ملوثة . وسوف أتحمل بمفردى عاقبة أخطائى حتى نهاية العمر !.. فما لغير الخاطئات ومالى ، أو مالى واياهن ؟ نحن لانفهم احدانا الأخرى ..!

● **تبدو هستر مقبلة من الخلف ..**

الابن : أماه ، أستحلفك أن تفعلى ما أطلبه منك !

الأم : كيف تطالبنى بهذه التضحية ، بل المهزلة المنكرة ؟.. وكيف أجرؤ على أن أقف فى حضرة الله كى أعاهده على أن أحب الرجل الذى أمقته فعلا ، أو على أن أصون شرف من أهدر شرفى ، وأطيع من جعل منى — بحكم سيطرته — امرأة خاطئة ؟ كلا .. ما الزواج الا رباطا مقدسا بين طرفين متحابين . انه لم يجعل لمثله أو لمثلى !.. جيرالد ، انى من أجلك قد كذبت على الناس طيلة عشرين عاما ، كى أحميك من سخريتهم .. لكنى ولا من أجل نفسى أستطيع أن أكذب على الله ، فى حضرة الله !.. وما من رباط دينى أو دنيوى ، أيا كان ، سوف يربطنى مع جورج هارفورد !.. ابدا ، ابدا .. انك لاتقدر كم قاسيت بسببه ، وكم جاهدت

وكددت فى سبيل تنشئتك ، وأنت المحروم من رعاية الأب ! ما من عمل يبدو وضيعا فى اعتبار المرأة التى تريد أن تنفق على من تحب ، ولكم أحببتك !.. ليل نهار كنت أسهر على حمايتك من غائلة الموت ، المحروم من النسل ، الذى يريد دائما أن ينتزع أطفالنا منا !

ونحن نحسب فى البداية أن أطفالنا حين يكبرون ويبلغون مبلغ الرجال سوف يعوضوننا عن تعبنا خيرا ، وينصفوننا من الحياة . لكن الحياة لا تلبث أن تجذبهم بمباهجها وتبعد قلوبهم عنا ، فينقلبوا لنا ظالمين .. فهم حين يجدون الحياة مريرة يلوموننا على مرارتها ، وحين يجدونها حلوة لا يشركوننا فى تذوق حلاوتها !.. فانك حين كبرت صار لك أصدقاء تذهب الى بيوتهم وتقضى أوقاتا بهيجة معهم .. أما أنا ، فقد انطويت على عارى ، فلم أجرؤ على أن أتبعك . بقيت فى بيتى وأغلقت على نفسى الباب . حجبت عنى الشمس وقبعت فى الظلام !.. فماذا كنت لأفعل فى بيوت الشرفاء ؟ كان ماضى دائما يلازمنى !.. ولقد حسبت أنت أننى لم أكن أعبأ بمباهج الحياة ، لكنى أصارحك بأنى طالما اشتقت اليها ، وان لم أجرؤ على أن ألمسها ! كنت أشعر بأنى لا أملك هذا الحق ! ولعلك قد توهمت أنى كنت أجد سعادة أعظم فى حدبى على الفقراء ، وان تلك كانت رسالتى .. كلا يا ابنى ، فأين غير هناك كان يمكننى أن أذهب ؟ ان المريض لا يسأل اذا كانت اليد التى تسوى وسادته يد طاهرة أم غير طاهرة .. ولا المحتضر يعبأ بما اذا كانت الشفاه التى تلثم جبينه قد ذاقت قبلة الدنس أم لم تذقها !.. وأنت قد لاحظت كما لاحظ سواك أنى أسرف فى ارتياد بيت الله والقيام بواجبات الدين .. ولكن أين ترانى كنت لأتجه ، والى أى ملاذ كنت ألجأ ؟

ان بيت الله هو البيت الوحيد الذى يفتح للخطاة أبوابه ، على مصراعيها ، ويرحب بهم !

جيرالد : أماه ، كفى !.. لم أكن أعلم أنك قاسيت كل هذا ، من أجلى !.. وانى لمن أجل ذلك بالأحرى أناشدك أن تترفقى بنفسك وتخلدى الى مستقبل أكثر دعة وراحة .. أماه ، يجب أن تتزوجيه ، انه واجبك !

هستر (تقبل مندفعة من مكمنها فى أقصى الحجرة كى تعانق مسز أربثنوت وهى تشرق بدمعها) : كلا ، كلا .. انك لن تفعلى . انه يكون عارك الحقيقى ، العار الأول الذى يلحق بك !.. بل انبذيه وتعالى معى . هناك بلاد أخرى غير انجلترا ، بلاد وراء البحار ، أفضل ، وأحكم ، وأقل ظلما .. ان العالم جد فسيح وكبير ...

الأم : ليس بالنسبة لى ، وانما هو لمثلى فى ضيق راحة اليد !.. وأينما سرت سوف تنبت فى طريقى الأشواك !

هستر : لن يحدث شىء من ذلك ، بل اننا سنجد ـ فى مكان ما ـ الوديان الخضراء والمياه العذبة ! دعينى آخذك اليها .. واذا قدر لنا أن نبكى فسوف نبكى سويا .. أو لم نحببه سويا ؟

جيرالد : هستر !

هستر (تذوده عنها) : ابق حيث أنت .. انك لن تستطيع أن تحبنى الا اذا أحببتها هى أيضا ، ولن تكرمنى ما لم تكن هى عندك الأكرم !.. فيها تستشهد الأمومة كلها ونحن جميعا مهانون فى شخصها ..

جيرالد : وماذا تريديننى أن أفعل ؟

هستر : اسأل قلبك ، ولا تسألنى .. فما كانت لى أم كى أنقذها أو أخزيها !

الأم : انه قاسى القلب .. دعينى أذهب فأنزوى بعيدا !
جيرالد (يخف الى أمه فيركع أمامها) : أماه ، اغفرى لى .. أنا الملوم !
الأم : لا تلثم يدى ، انهما باردتان .. قلبى ذاته بارد ، شىء قد حطمـه !
هستر : آه ، لا تقولى ذلك . ان القلوب تحيا بالجراح ، فالهناء يحول القلب الى حجر والثراء يقسيه !.. ان الحزن لا يستطيع ان يحطم قلبك ، ثم .. أى حزن بك الآن ؟ انك الساعة أغلى عنده مما كنت يوما .. ألا رفقا به !
جيرالد (نادما) : لأنت أبى وأمى فى وقت معا ! لست بحاجة الى والد آخر ! لقد طلبت منك ما طلبت لأجلك وحدك .. أواه ، قولى شيئا يا أماه !.. رباه ، هل وجدت حبا لأفقد الآخر ؟ أماه ، انك لقاسية ! **(ينهض الى حيث يلقى بنفسه على كنبة وينشج باكيـا)** .
الأم (الى هستر) : أحقا انه قد وجد حبا آخر ؟
هستر : تعلمين أنى أحببته على الدوام ...
الأم : لكننا فقراء للغـاية !
هستر : من يكون فقيرا وهو محبوب ؟ انى أمقت ثرائى ! انه عبء ثقيل ، فليشاركنى اياه ...
الأم : لكننا موصومون بالعـار ، منبوذون .. وجيرالد لا يملك اسما !.. ان خطايا الآباء ينبغى أن يعاقب عليها الأبناء .. انهـا شريعـة الله !
هستر : كنت على ضلال .. شريعة الله ليست سوى الحب !
الأم (تنهض فتأخذ هستر من يدها متلصصة الى حيث انكفأ جيرالد على الكنبة يبكى . تلمسه فى رفق ، فيرفع اليها بصره) :

جيرالد ، انى لن أستطيع أن امنحك أبا .. لكنى جئتك بزوجة !

جيرالد : أماه ، انى لست جديرا بها ولا بك ..!

الأم : انها تأتى فى المقدمة ، اذن فأنت جدير بكلينا !.. جيرالد ، عندما ترحل الى بعيد .. فكر فى من حين الى حين . لاتنسنى .. وعندما تصلى فلتذكرنى فى صلاتك .. اننـا نصلى حين نكون سعداء ، ولسوف تسعد يا ابنى .

هستر : ماذا أسمع ؟ انك لن تفكرى فى أن تفارقينا ؟

جيرالد : أماه ، انك لن تتركينا ؟.

الأم : قد أجلب عليكما العـار ..!

جيرالد : أماه !

الأم : حسنا ، فلأصحبكما فى البداية .. واذا أردتما عشت بعد ذلك فى دار قريبة من داركما ..

هستر : والآن تعالى معنا الى الحديقة ..

الأم : فيما بعد .. فيما بعد ..

● ويخرجان ، فتتجه مسز اربثنوت الى مرآة فى ركن الحجرة فتتطلع الى صورتها فيها .. ثم تدخل الخادمة حاملة بطاقة زائر ، فلا تقرأها سيدتها حتى تجيبها : « اخبريه انى لن استقبله ! » .. لكن اللورد النجورث يدخل فى أثر الخادمة قبل أن يؤذن له ، فتراه ربة البيت فى المرآة ، وتجفل ، لكنها لا تستدير اليه .. وانما تخاطبه عبر المرآة : « ماذا عندك لى اليوم يا جورج هارفورد ؟ فلتغادر هذا البيت فورا ! » .. لكنه يعدها بان جيرالد ، وقد عرف الحقيقة كلها ، سوف يجد فيه منذ الآن أكرم أب !.. فتعود الى الالحاح عليه فى الخروج قبل أن يراه جيرالد ، فقد لا تستطيع حمايته منه كما حمته بالأمس !..

اللورد (وهو يجلس ، غير مبال) : انها تلك الأمريكية الحمقاء التى أفسدت الأمر كله ليلة أمس ، لا لشىء سـوى انى أردت تقبيلها !.. أى ضرر فى القبلة ؟

الأم (وهى تستدير فتواجهه) : قد تدمر القبلة حيـاة امراة يا جورج هارفورد !

اللورد : لم أجىء لأناقش هـذه المسـألة ، وانمـا الذى جئت لأناقشه : مصير ابننا ! انى جد معجب به فى الواقع ، وقد يدهشك أن أعترف بأن مسلكه فى الدفاع عن تلك الدمية البلهاء ليلة أمس قد راقنى الى أبعد حد . انه نموذج للابن الذى طالما تمنيته لنفسى !.. وما أريد أن أقترحه هو ..

الأم : لا يهمنى أن أسمع منك اقتراحا ما يالورد النجورث !

اللورد (مستطردا) : انى طبقا لقانوننا الانجليزى السخيف عاجز عن الاقرار بنسب جيرالد الشرعى الى . لكن فى وسعى أن أورثه أملاكى .. وأقترح أن ...

الأم : قلت لك أن ذلك أمر لا يهمنى .. فلتذهب !

اللورد : سـوف يبقى الفتى معـك ستة أشـهر من السنة ، ومعى أنا بقيـة السنة .. ولك أن تطلبى المال الذى تريدين ، ولا تخشى حرمان جـيرالد من الارث ، فما أنا بحاجة الى أن أؤكد لك أنى لست أفكر البتة فى الزواج !



الأم : لقد جئتمتأخرا . لم يعد ابنى بحاجة اليك !

اللورد : ماذا تعنين يا راشيل ؟

الأم : فلتطل من النـافذة على الحـديقة **(ينهض فيتجـه الى حيث تشير ، ولا يلبث أن يجفل مأخـوذا !)** خير لك أن لا تدع بصرهما يقع عليك ، فان مرآك يثير ذكريات غـير سارة ! ..

انها تحبه ، كلاهما يحب صاحبه .. وقد بتنا فى مأمن منك ، وسوف نذهب بعيدا ..!

اللورد : الى أين ؟

الأم : لن نخبرك،واذا عثرت يوما علينا فلن نعرفك ! تبدو عليك الدهشة ؟ وماذا غير ذلك تتوقع من الفتاة التى حاولت أن تدنس ليلة أمس شفتيها ، والفتى الذى جللت حياته بالخزى ، والأم التى تستمد عارها منك ؟

اللورد : لقد غدوت قاسية يا راشيل !

الأم : كنت ضعيفة يوما ، لكنى لحسن الحظ تغيرت ..!

اللورد : انى كنت يومئذ حدثا .. نحن الرجال نعرف الحياة مبكرين .

الأم : ونحن النساء نعرفها متأخرات !

اللورد : راشيل ، أريد ابنى .. انه قد لا يكون الآن فى حاجة الى مالى ، أو الى شخصى ، لكنى أريد ابنى .. اجمعى بيننا يا راشيل . انك تستطيعين لو أردت ..

الأم : ليس فى حياة ابنى مكان لك . انك لا تهمه فى شىء !

اللورد : اذن فلماذا يكتب الى ؟

الأم : ماذا تعنى ؟

.. فلقد لمح اللورد على المنضدة خطاب جيرالد الذى كتبه اليه ، فتناوله .. وعبثا تحاول المرأة أن تسترده منه قبل أن يقرأه ، بحجة أن كاتبه قد ندم على ما جاء فيه بعد كتابته .. فان اللورد يمضى فى قراءته حتى يتمه :

اللورد : لست أقر جيرالد على ما يذهب اليه من أن واجبى يقتضينى الزواج منك . لكنى فى سبيل استرداد ابنى أبدى استعدادى لأن أتزوجك يا راشيل ، وأعدك بأن تلقى منى على الدوام كل ما يليق بزوجتى من رعاية واحترام . انى منذ الآن رهن اشارتك ...

الأم : لكنى أرفض الزواج منك يا لورد النجورث !

اللورد : أجادة أنت ؟

الأم : كل الجد . . !

اللورد : هل لك أن تتفضلى علىبذكر الأسباب ؟ لابد أنها شائقة !

الأم : لقد أوضحتها لابنى . . !

اللورد : أحسبها أسبابا عاطفية محضة ، فأنتن معشر النساء تعشن بعواطفكن ومن أجلها . ليس لكن أدنى نصيب من فلسفة الحياة . . !

الأم : أنت على حق ، فنحن نعيش بعواطفنا ومن أجلها . وان قلبى لينطوى على عاطفتين يا لورد النجورث : حبى لابنى وبغضى لك ! . ولن تستطيع أن تقتلع منه عاطفة منهما ، فان كلاهما تقتات من الأخرى !

اللورد : اذن فأنت ترفضين الزواج منى حقا ؟

الأم : نعم .

اللورد : لأنك تبغضيننى !

الأم : نعم .

اللورد : وهل يبغضنى ابنى كما تبغضيننى ؟

الأم : كلا .

اللورد : لكم يسرنى ذلك يا راشيل . .

الأم : انه يحتقرك فقط !!

● **يجفل اللورد قليلا ، ثم يتمالك نفسه فينهض ويتجه متئدا نحو المنضدة التى ترك عليها قبعته وقفازيه .. وفيما هو يضع فى يده أحدهما يلتفت الى محدثته :**

اللورد : أحسب أنه لم يبق لى ما أفعله هنا . أهو الوداع إذن ؟

الأم : والى الأبد هذه المرة فيما أرجو ، يا لورد النجورث !

اللورد : عجبا !.. انك فى هذه اللحظة تبدين فى نفس مظهرك الذى بدوت فيه ليـلة هجرتنى منذ عشرين عاما : نفس تعبير الفم ! أقسم بشرفى يا راشيل أن ما من امرأة أحبتنى يوما مثلما أحببتنى .. ولقد وهبتنى نفسك كالزهرة ، أفعل بها ما أشاء ! **(ينظر فى ساعتـه)** لقـد حان موعد ذهابى الى دار ليـدى هنسـتانتون . أعتقـد أنى لن أراك هناك بعـد الآن . انه أمر يؤسفنى حقا ، فلكم كان طريفا أن يعثر المرء بين أفراد طبقته الذين يحترمهم على .. خليلته !

● **تختطف مسز أربثنوت الفردة الثانية من قفاز محدثها وتلطمه بها على وجهه ، فيجفل منتفضا من الاهانة .. لكنه يعود فيتمالك نفسه ويتجه الى النافذة كى يلقى منها نظرة أخيرة على ابنه !.. ثم يتنهد ويغـادر الغرفة .. بينما تتهالك المرأة على الكنبة وتنخرط فى البكاء !.. وبعد لحظات تسمع خطوات جيرالد وهستر تقترب ، فتجفف الأم دمعها وتنهض :**

جيرالد : انك لم تلحقى بنا فى الحديقة كما وعدت يا أماه ، فجئنا لنأخذك .. ماذا ، أكنت تبكين ؟ **(ينحنى راكعا بجانبها)** .

الأم : ابنى ! ابنى ! ابنى ! **(تعبث بشعره بأصابعها)** .

هستر : لكن لك الآن اثنين .. أفلن تجعلينى بمثابة ابنتك ؟

الأم : هل تختارينني لك أما ؟

هستر : نعم ، بين جميع من عرفت من النساء !

● **ويتجه ثلاثتهم متخاصرين نحو الباب المفضى الى الحديقة .. لكن جيرالد يلمح قفاز اللورد النجورث ملقى على الأرض ، فيلتقطه متسائلا :**

جيرالد : أماه ، قفاز من هذا ؟ من كان يزورك ؟

الأم (تستدير اليه) : أوه ، لا أحد .. لا أحد ذو صفة .. رجل .. لا وزن له !

(ســـــتار)

كتب الأولون



كنوز الكتب القديمة

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب اعتزم أن ((أستخرج)) لك بعون الله تراث الانسانية الخالد من الكنوز الذهنية القديمة التى لعلك طالما سمعت عنها أو قرأت اشارة اليها دون أن تتاح لك فرصة قراءتها أو الالمام بخلاصة وافية لها .. فتعال نقرأ معا ، فى هذا العدد والأعداد التالية : ديكاميرون (لبوكاشيو) ، الكوميديا الالهية (لدانتى) ، الالياذة والأوديسة (لهوميروس) ، العقد الاجتماعى و ((اميل)) (لجان جاك روسو) ، الأمير (لمكيافيللى) ، أصل الأنواع (لداروين) ، السياسة (لأرسطو) ، الجمهورية (لأفلاطون) ، يوتوبيا أو الدولة المثالية (لتوماس مور) ، الفردوس المفقود (لملتون) التاريخ (لهيرودوت) ، دون كيشوت (لسرفانتس) ، رأس المال (لكارل ماركس) انحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية (لجيبون) ، هكذا تكلم زرادشت (لنيتشة) ، الشخصيات (لبلوتارك) ، الأخلاق (لسنيكا) التربية (لهربرت سبنسر) ، كتاب الموتى (من تراث مصر القديمة) ، رباعيات عمر الخيام .. ولن أغفل تراث العرب الخالد ومنه : رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، الحيوان والبخلاء للجاحظ ، رسالة حى بن يقظان لابن طفيل ، طوق الحمامة لابن حزم الأندلسى ، تزيين الأسواق لداود بن عمر الانطاكى ، الصادح والباغم لابن الهبارية (على طريقة كليلة ودمنة) .. الخ .



"ديكاميرون"

(ألف ليلة وليلة الإيطالية)

لزعيم كتاب عصر النهضة

چيوڤانى بوكاشيو



كيد النساء

كان يعيش فى باريس تاجر فلورنسى الأصل ، هاجر من موطنه بايطاليا فقيرا معدما ، ثم اشتغل بالتجارة فى العاصمة الفرنسية حتى أثرى .. وكان له ابن وحيد يدعى « لودوفيكو » لم يشأ له أن يشب صبيا فى حانوت تجارته ، بل أرسله مع عدد من أنداده أبناء النبلاء كى يخدم فى بلاط ملك فرنسا .. وهناك لقن الفتى من آداب اللياقة وتقاليد القصور ما أهله لأن يغدو « جنتلمانا » مهذبا ..

وذات يوم جمعه مجلس مع عدد من الفرسان العائدين من زيارة المدينة المقدسة « الفاتيكان » ، فراحوا يتبارون فى التحدث عن أجمل ما شاهدوه فى البلاد التى زاروها ، ومن بينها انجلترا وفرنسا وايطاليا وغيرها .. فقال أحدهم انه لم ير فى شتى أنحاء الأرض ، وبين جميع النساء اللواتى وقع عليهن بصره ، امرأة أجمل من « بياتريس » زوجة الثرى « ايجانو دى جالوزى » الذى يقطن مدينة « بولونا » !.. وأمن بقية الرفاق ، الذين كانوا مع الراوى حين رآها ، على رأيه هذا .. بل وراحوا يطنبون فى وصف جمال تلك المرأة ، حتى أحس الفتى « لودوفيكو » بشوق جارف الى أن يراها هو الآخر ، بحيث بات عاجزا عن التفكير فى أمر آخر طيلة الأيام التالية ، اذ لم يكن قد ذاق الحب من قبل !

.. وانتهى به سهاده الطويل الى اعتزام السفر الى ايطاليا بحجة زيارة المدينة المقدسة ، على أن يعرج فى طريقه على البلدة التى تقيم فيها « بياتريس » كى يمتع منها بصره ، وما استطاع من حواسه الأخرى .. ويبقى بالقرب منها ما طابت له الاقامة ..!

وحين فاتح أباه برغبته فى الحج الى الفاتيكان ، رحب الأب بالفكرة ، فشد لودوفيكو رحاله الى حيث أراد .. وفى اليوم التالى لوصوله الى « بولونا » تحققت أمنيته المشتهاة ، فقد رأى المرأة مطلة من نافذتها ، فأذهله جمالها الذى فاق كل ما طاف بخياله !.. واعتزم أن يبذل أقصى جهده كى يتصل بها ويطارحها الهوى ، لعله يروق فى عينيها ..!

وهداه تفكيره الى حيلة تقربه من هدفه ، فباع جياده وتخلص من خدمه الذين جاءوا من باريس فى ركابه .. ثم وسط صاحب الحانة التى كان قد نزل فيها كى يلحقه بخدمة السيد « ايجانو » ، الذى علم أنه يرحب بالخدم ذوى الطلعة الحسنة والمظهر المحترم .

وتم للشـاب ما أراد ، فأتيح له أن يرى فاتنته صباح مساء .. وحرص من جانبه على أن يؤدى عمله بهمة ونشاط زائدين ، حتى ظفر بثقة سيده فجعله وكيله المتصرف فى كل أعماله ، ولم يعد ينجز أمرا بغير مشورته !

وذات يوم حانت فرصة لودوفيكو المبتغاة ، حين خرج سيده للصيد فدعته سيدته كى يشاركها لعبـة الشطرنج ، بقصد التسلية وقتل الوقت ، بغير أن تكون لدى المرأة أدنى فكرة عن العاطفة المضطرمة فى قلب الشاب نحوها ..!

وتعمـد لودوفيكو أن يجعل سيدته تربح فى البـداية ، فاغتبطت وطربت لذلك .. وفى نهاية أحد أشواط اللعب أطلق الشاب من صدره تنهدة عميقة تلفت النظر ، فسألته بياتريس عما اذا كانت لتنهده صلة بخسارته فى اللعب ؟.. فأجابها بأن الأمر أخطر من ذلك ، ولم يزد !.. وأثارت لهجته الغامضة المقتضبة فضولها النسائى فاستحلفته أن يصارحها بما يضايقه ،

والحت عليه فى هذا الصدد واعدة اياه بأن تصون سره فلا تبوح به لمخلوق !..

واذ اطمأن الشاب الى هذا الوعد ، باح لها ـ والدموع فى عينيه ـ بهواه المشبوب وقصته الكاملة ، منذ اليوم الذى سمع فيه حديث الفرسان عن جمالها .. وكيف أنه جاء من باريس خصيصا ليراها ، فلما وقع بصره عليها فى النافذة أحبها لفوره وراح يسعى حتى التحق بخدمة زوجها ... الخ ـ ثم ختم اعترافه مناشدا المرأة أن تترفق بحاله فتتقبل حبه المكظوم هدية منه وقربانا لحسنها الباهر .. أو فلتنس مكاشفته هذه لها وتتركه يتملى من جمالها عن بعد، فى صمت، كما كان .. اذا رأت فى الاستجابة لهواه فضلا ومنة هما أعظم من أن يستحقهما مثله !

لم تحول المرأة بصرها عن الشاب وهو يتكلم ، حتى اذا ما أفرغ قلبه فى أذنيها تنهدت بدورها تنهدتين أو ثلاثا ثم قالت له : « لودوفيكو ، فلتقر عينا ، فانك قد ظفرت فى هذه الدقائق المعدودة التى كاشفتنى فيها بهواك ، بما عجز عنه جميع السادة الذين يمطروننى بهداياهم وغزلهم كل يوم !.. ولتثق بأننى منذ الآن لك ، أكثر مما أنا لنفسى ، فلقد استحققت حبى وسوف تناله !.. وانى أعدك بأن هذه الليلة لن تنقضى حتى يكون حلمك قد تحقق ، فتعال الى مخدعى عند منتصف الليل وسوف أترك لك الباب مواربا .. وأنت تعرف الجانب الذى أشغله أنا من الفراش والجانب الذى يشغله زوجى .. فلتتسلل فى حذر الى مكانى ، واذا وجدتنى مستغرقة فى النعاس فما عليك الا أن تلمسنى فى رفق ، فأفيق وأكافئك على انتظارك الطويل . وتوكيدا لعهدى دعنى أعطيك الآن قبلة ، من قبيل

« العربون ! » .. ثم عانقته عناقا حارا وافترقا ، على أن يلتقيا في الموعد المضروب !

وبعد حين عاد الزوج « ايجانو » من الصيد متعبا منهوكا ، فتناول عشاءه على عجل ودلف الى مخدعه ، وفي أثره زوجته ، بعد أن تركت الباب مواربا كما وعدت !.. وفي الموعد المتفق عليه مضى لودوفيكو متلصصا الى داخل الحجرة ، حتى بلغ الجانب الذى تشغله « بياتريس » من الفراش فمد يده في رفق الى صدرها .. وكانت مستيقظة ، فتشبثت بيده بكلا راحتيها ، بكل قوتها ، وتقلبت في فراشها بحركة تعمدت منها أن توقظ زوجها !.. فلما تنبه من نومه ابتدرته هامسة : « يا حبيبى ، لم أشأ ازعاجك في المساء بما عندى لأنى لمحت على محياك علامات التعب والاعياء .. فدعنى أسألك الآن : « أى خادم عندك تفضله وتثق في اخلاصه لك أكثر من سواه ؟ » فأجاب الزوج : « ياله من سؤال غريب !.. أنت تعلمين أننى لم أعجب يوما بخادم وأوليه ثقتى مثلما أفعل الآن مع لودوفيكو .. ولكن ما الذى يدعوك الى سؤالى ؟ »

.. في هذه الأثناء كان الشاب يسمع ما يدور بين الزوجين، فدار بخلده أن سيدته قد خانته واعتزمت أن تشى به عند سيده .. فحاول أن يخلص يده من قبضتها كى يلوذ بالفرار ، لكنه لم يستطع !.. وسمع المرأة تجيب زوجها : « وأنا كنت مثلك أولى لودوفيكو ثقتى التامة وأعجب باخلاصه .. لكنى تبينت خطأى ، فلقد انتهز فرصة خروجك أمس للصيد فراودنى عن نفسى !.. ولكى أثبت الأمر تظاهرت له بالقبول ، وواعدته على اللقاء تحت شجرة الصنوبر التى في الحديقة ، كى أعد له كمينا ! فاذا أردت أن تستوثق من غدره فما عليك الا أن ترتدى الآن معطفى وتضع على وجهك نقابى ثم تمضى



متنكرا فى هيئتى الى حيث تلقاه!»
نهض الزوج من فوره فنفذ الفكرة بقدر ما أسعفه الظلام ، وتسلل الى الحديقــة ليكمن فى انتظار الخائن !.. فى الوقت الذى فيه كان هذا يخرج من مخبأه ، وقد اطمأنت مخاوفه ، كى ينعم مع عشيقته بثمرة هذه الخدعة المحكمة !.. وحين رأت المـرأة أن الوقت المناسب لانصرافه قد حان ، قالت له : « والآن أريدك أن تأخذ هراوة وتمضى الى لقاء زوجى فى الحديقة ، ثم تلقى عليه ـ باعتباره اياى ـ درسا قاسيا بالعصا ، متظاهرا « لى » بأنك قد ضربت لى هذا الموعد كى تختبر مدى عفتى واخلاصى لزوجى !! »

مضى الشاب كما أوصته المرأة ، فلم يكد الزوج يلمحه يقترب حتى خف للقائه متظاهرا باللهفة .. واذ ذاك ابتدره لودوفيكو موبخا « : أهذه أنت أيتها المرأة الآثمة ؟ أو حسبت أنى أقدم حقا على خيانة سيدى على هذا النحو ؟ سوف أجعلك تكفرين عن ضعتك ونذالتك ! » .. ثم رفع عصاه فأهوى بها على جسم « الزوج » ، الذى لم يكد يحس لسعة الهراوة على لحمه حتى أطلق ساقيه للريح عائدا من حيث أتى ، دون أن ينطق بكلمة تنم عن حقيقة شخصيته .. بينما انطلق الشاب فى أثره صائحا : « سحقا لك أيتها المرأة الخائنة .. ولتثقى

أنى سأفضح فعلتك لسيدى بمجرد أن يشرق الصباح ! »

.. وأخيرا بلغ الزوج مخدعه لاهث الأنفاس ، يئن من ألم الضربة التى أصابته من هراوة غريمه ، فاستقبلته زوجته متسائلة : « هل لقيت لودوفيكو ؟ » .. فأجابها ساخطا : « ليتنى ما لقيته .. لقد هرأ اللعين عظمى بهراوته وأشبعنى بأقذع السباب !.. أتعلمين أنه لم يضرب لك هذا الموعد الا ليختبر اخلاصك لى ؟ » .. فقالت المرأة : « اذن فشكرا للسماء ، لقد امتحننى الرجل بالأقوال وامتحنك أنت بالأفعال ! والآن ، بما أنه قد أثبت اخلاصه لك على هذه الصورة ، أفلا تنوى أن تكافئه ؟ .. فأجاب ايجانو : « بكل تأكيد » .. !

ومنذ تلك الليلة صار ايجانو يتباهى مزهوا فى كل مناسبة بأنه رجل محظوظ ، قد اجتمعت له نعمتان يحسد عليهما أى انسان : زوجة هى أعف نساء الأرض جميعا .. وخادم لا يوجد من يفوقه اخلاصا ووفاء ! »

.. فى الوقت الذى كان فيه العاشقان يضحكان فى كميهما من غفلة الزوج ، ويشربان نخب بلاهته .. وقد اتسعت لهما منذ تلك الساعة فرصة اللقاء الآمن ، كل حين ، طيلة الفترة التى راق للشاب أن يقضيها فى خدمة السيد السند « ايجانو » ، عين أعيان مدينة بولونا !

●

عزيزى القارىء :

والآن ، وقد قرأت هذه القصة الطريفة ، لعلك مشوق الى أن تعرف شيئا عن مؤلفها .. انه يدعى « جيوفانى بوكاشيو » ، عاش فى القرن الرابع عشر (١٣١٣ – ١٣٧٥) وقد أطلقوا عليه « جيوفانى المرح » لأنه كان قديرا على مواجهة المصائب بوجه بشوش ، بل كان من نعم الله عليه أن وهبه المقدرة النادرة على اشاعة المرح فى نفوس الآخرين أيضا !.. واذ وجد نفسه فى مجتمع يحفل

بالنساء المتضايقات من سأم الحياة ، عكف على تسليتهن وتبديد ضجرهن .. ولاحظ من تجاربه أن لاشىء فى الدنيا يبدد الضجر مثل قصة حب ! وأن متعة المرأة الكبرى أن تلعب بالنار ، نار العاطفة ، سواء بنفسها أو طريق غيرها من بنات جنسها .. فهى اذا خشيت أن تحترق أصابعها من اللعب بالنار استعاضت عنه بمطالعة قصص غيرها من النساء اللواتى لعبن بالنار !.. وقد لاحظ بوكاشيو ان هذا الحب « بالنيابة » يكاد يمنح المرأة نفس المتع المثيرة التى يمنحها اياها الحب الفعلى ، دون أن ينطوى على أخطاره !.. فهو اذن يحميها من الانقياد لنزواتها ، أو على حد تعبيره : « ان ما تفعله النساء المغامرات يحلو لاخواتهن الأقل منهن جرأة أن يتخيلن أنفسهن يفعلنه ..! »

وهكذا ، بفضل محاولة بوكاشيو تغذية خيال النساء « الأقل جرأة » صار خالق القصة الحديثة ..!

و « مخلوقات » بوكاشيو فى قصصه من النساء أو الرجال ، يتكلمون بلهجة طبيعية ، ويحيون حياة مليئة بالانفعالات و « الحرارة » ، بحيث نحس ونحن نقرأ مغامراتهم كأننا ما نزال نراهم ونسمعهم ونستمتع بصحبتهم ، رغم الأجيال التى تفصل عالمنا عن عالمهم !.. وقد بلغ من توفيق بوكاشيو فى خلق « مرآة » صادقة للحياة ، بقصصه ، ان قال عنه أحد النقاد : « عندما خلق الله بوكاشيو ، « ضاعف » الخليقة !! »

يحذق الشعر • والهوى

• وقد ولد بوكاشيو ، سنة ١٣١٣ ، ابنا « غير شرعى » لتاجر من تجار « فلورنسا » ، فى عصر كانت تغلب عليه مسحة الدين .. ثم تعلم فى كنف الكنيسة ، لكنه سرعان ما هجرها ليواجه خضم الحياة ، فترك المدارس فى سن العاشرة ليلتحق بمؤسسة رجل باريسى من أصحاب الأعمال . وبعد سنوات صار « مندوبا تجاريا » لأبيه ، لكن الأب لم يكن يكف عن الشكوى من ابنه « الوغد الصغير الذى كان يشترى من الكتب أكثر مما يبيع من البضائع ! »

ولما كان الفتى أديبا بفطرته ، فانه سرعان ما اكتسب دراية بالأدب تفوق ما كان لخريجى الجامعات فى أيامه !.. لكنه لم يزود نفسه بالأدب وحده ، بل بالحياة أيضا .. فحذق فى وقت واحد نظم الشعر ومطارحة الهوى !.. كان شديد الولع بصحبة الكتب ، ولعه بصحبة النساء !.. أما تجارته .. « فليتولاها أبى ، ففى عروقه يجرى نهر من الذهب .. أما أنا فيجرى فى عروقى نهر من الدم الأحمر ! »



واذ خاب أمل أبيه فى أن يجعل منه تاجرا ، اعتزم أن يجعل منه محاميا ، فارسله الى جامعة نابولى ، حيث بدأ جيوفانى يوطن نفسه ، فى جد ومثابرة ، على كل شىء .. الا دراساته القانونية !

واستغل المرتب الذى يرسله اليه أبوه فى التزود بشتى ثمار المعرفة « المحرمة » .. وفى الوقت الذى كان فيه مفكرو زمانه « الجادون » ، بزعامة « دانتى » ، يخوضون فى غوامض الألغاز الالهية ، كالجحيم والنعيم والمطهر .. كان بوكاشيو يركز فضوله فى محاولة الاهتداء الى لغز الهى رابع كان فى نظره امتع الألغاز جميعا لأنه أكثرها انسانية : هو لغز « الأرض » !.. وبينما وجه « دانتى » و « بترارك » ،أنظار العالم الى الحب « الروحى » لنساء مثل « بياتريس » و « لورا » ، أدار بوكاشيو عينيه ، وقلبه ، نحو الحب « الدنيوى » لنساء مثل « ماريا » ، الابنة غير الشرعية لروبرت ملك صقلية ، التى تورط بوكاشيو فى حبها ، وهو فى الثامنة والعشرين ، رغم أنها كانت متزوجة ! وقد أطلق عليها اسم « فياميتا » أى (الشعلة الصغيرة) وسمح لنفسه فى استهتار بأن يستدفىء بنار حبها المسروق .. لكنه جازاها على ذلك بسخاء حين كتب رواية كاملة باسمها ، ثم خلدها كشخصية رئيسية من شخصيات كتابه الأعظم « ديكاميرون »

على نمط « ألف ليلة وليلة » !

• وحين كتب بوكاشيو « ديكاميرون » سنة ١٣٤٩ ، بعد عدة محاولات أدبية سابقة ، كان قد تعلم كيف يكتب بقلبه كما برأسه .. وأبطال قصص الكتاب يفكرون بحرية ، ويتصرفون أيضا بحرية !.. ونظرتهم الى الحياة صريحة بقدر ما هى نزقة .. وهم لا يزعمون أنهم يضطلعون « برسالة » لاصلاح مفاسد الأرض ، وانما يكتفون باغماض أعينهم عن هذه المفاسد !.. فشعار

حياتهم الوحيد : عش ليومك ودع غيرك يعش !.. وهم لايذهبون فى الخير الى حد تضحية المرء بنفسه من أجل الآخرين ، لكنهم لا يذهبون أيضا فى الشر الى حد التضحية بالآخرين من أجل أنفسهم !.. وبالاختصار فان فلسفتهم فى الحياة تصورها خير تصوير قصتهم الطريفة التالية :

قيل أن الحكيم الفيلسوف ديوجين التقى يوما بالاسكندر المقدونى ، فحاول اقناعه بسخف مطامعه من وراء حروبه وغزواته ، وسأله :

ـ ماذا تنوى أن تفعل بعد أن تغزو اليونان ؟

ـ سأغزو بلاد الفرس !

ـ وبعد أن تغزو بلاد الفرس ؟

ـ سأغزو مصر !

ـ وبعد أن تغزو مصر ؟

ـ سأغزو العالم !

ـ وبعد أن تغزو العالم ؟

ـ عندئذ أستريح وأستمتع بالحياة !

ـ فكان جواب الحكيم الأخير عليه : « لماذا اذن لا تستريح وتستمتع بالحياة من الآن ؟ »

● وفى الوقت الذى كتب فيه بوكاشيو « ديكاميرون » كان العالم قد عاش قرونا ينوء تحت وطأة الشعور برهبة الخطيئة ويخشى عقابها .. كان الناس قد نسوا « أكسير » الضحك الناجع ، فجاء بوكاشيو وعلمهم كيف يضحكون !.. وأكثر قصص الكتاب ليست من خلق بوكاشيو ، وانما هى مثل « ألف ليلة وليلة » تراث عدة أجيال ، وكثير من العقول .. لكن بوكاشيو أخذ زبدة هذا التراث الفجة وهيكله الرئيسى ونفخ فيهما من خياله أنفاس الحياة !

كيف وضع الكتاب ..

● فى سنة ١٣٤٨ تفشى فى مدينة فلورنسا بايطاليا طاعون مخيف ألجأ بوكاشيو الى الفرار من المدينة مع أكثر أهلها .. ولم يعد اليها الا بعد عامين ، حين خفت حدة الوباء . وعندئذ عكف على كتابه هذا الخالد ، المحتوى على مائة قصة ، ألف أكثرها بغرض تسلية محبوبته « فياميتا » ومولاته بملكة نابولى .. وقد وضع الكتاب فى اطار فذ مبتكر : زعم أن أبطال الكتاب العشرة :

وهم سبع نساء وثلاثة رجال ، يدعون : بامفيلو ، ديونيو ، نيفيل ، أميليا ، فياميتا ، فيلوستراتو ، بامبينيا ، فيلومينا ، اليزا ، لوريتا .. قد فروا من فلورنسا حين اجتاحها الطاعون ، الى قصر يقع فى الريف البعيد الآمن ، حيث أقاموا نحو عشرة أيام يأكلون ويشربون ويغازلون .. وخلال تلك الأيام دبروا أن يحتالوا على الضجر بأن يقص كل منهم كل يوم قصة .. والقصة التى انتقيتها لك فى هذا العدد من « كتابى » - كيد النساء - ترويها « فيلومينا » فى اليوم السابع .. وهى وبقية قصص الكتاب تؤلف مهرجانا من الضـحك !.. حتى القصص الحزينة فى الكتاب لا تترك مرارة فى النفس ، وكأن مؤلفها أراد أن يصور فيهـا الألم كى يجعل للفرح بالقياس اليه طعما .. ولئن قيل عن « فولتير » انه كان يضحك ليخفى دموع قلبه البـاكى ، فان بوكاشيو كان يذرف الدمع من حين الى حين ، كى يستريح من الضحك !

ومنذ صدور كتاب « ديكاميرون » صار مصدر الوحى لكثير من أدباء الأرض وفنانيها ، « ومنجما » للقصة لعله أغنى مناجمها منذ بدء الخليقة على الاطلاق ، وسفرا من أعظم أسفار العالم وكتبه فى جميع العصور ..!

يحاول التوبة .. فيفشل !

● .. وفى أخريات أيامه ، التزم بوكاشيو الجانب الآخر المضاد من الحياة ، الجانب الجاد .. فألقى سلسلة من المحاضرات عن « دانتى » ، وسافر فى عدة مهام دبلوماسية لدى دول مختلفة .. بل انه كاد يدخل « الدير » تكفيرا عن مجونه القديم ، لكنه لم ينفذ نيته ، وهكذا مات كما عاش .. خاطئا !.. وهو اليوم يحتل مكانة هامة فى موكب الخطاة الذين يحبون ويغفرون ، ويأملون أن يحبهم الناس ، ويغفرون لهم !

شجرة الحرية

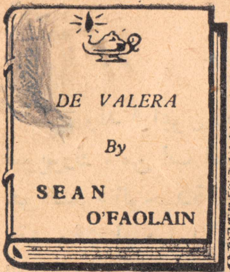


قصص حياة أنبياء الوطنية في الشرق والغرب

عزيزى القارىء ..

.. أما فى هذا الباب فانا أريد أن تصحبنى فى جولة نتعرف فيها على قادة الشعوب وزعماء الحركات الوطنية فى شتى بلاد الأرض ، كى نستمد من شعلة وطنيتهم نارا ومن قصص حياتهم وجهادهم قبسا من النور لعله ينير لنا السبيل الى ما ننشده لبلادنا من عزة ومجد .. ولن يخفى عليك أن نظرتنا أو نظرة غيرنا من الدول الى بعض هؤلاء القادة على أنهم أعداء لبلادنا أو بلاد غيرنا لا يغير شيئا من كونهم ، بالنسبة لأوطانهم ومواطنيهم ، وطنيين مخلصين !

فتعال معى نتعرف ، فى هذا العدد والأعداد القادمة ، على هؤلاء الأفذاذ والأبطال : ديفاليرا ، بارنل (ايرلندا).. غاريبالدى ، كافور ، مازينى ، دانونزيو ، سفورزا (ايطاليا) .. فنزيلوس (اليونان) .. بلسودسكى (بولونيا) أتاتورك (تركيا) فرانكو (اسبانيا) جان دارك ، ريشليو ، مازاران ، كلمنصو ، بوانكاريه ، ميلليران ، أرستيد بريان ، فوش (فرنسا) جورج واشنطون (الولايات المتحدة) سيمون بوليفار (بوليفيا) ستامبوليسكى (بلغاريا) باتشيش (الصرب) اهرنتال (النمسا) تيسزا (المجر) غاندى ، نهرو (الهند) محمد على جناح (باكستان) شيانج كاى تشيك ، يوان شى كاى ، سن يات سن (الصين) .. دزرائيلى ، لويد جورج (انجلترا) فاندر فيلد (بلجيكا) كراسين (روسيا) .. تيتو (تشيكو سلوفاكيا) .. الخ .



ديڤاليرا

زعيم إيرلندا الحرة

قصة حياته وكفاحه ضد الإنجليز!

للكاتب الإيرلندى "سين اوفولين"



نشـــأته

● ولد « ايمون ديفاليرا » يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٨٨٢ فى مدينة نيويورك ، من أب اسبانى مهاجر وأم ايرلندية مهاجرة . وكان هو الثمرة الوحيدة لزواج والديه الذى لم يعش غير عمر الزهور ، فقد مات أبوه بعد عام من مولده !.. وبعد نحو عامين انتقلت الأم بطفلها اليتيم الى وطنها الأصلى « ايرلندا » حيث تكفل شقيق لهـا باعالتهما .. ثم لم تلبث أن تزوجت للمرة الثانية وأنجبت طفلين آخرين عاش أحدهما حتى غدا من كبار رجال الدين المصلحين ..

وقد ورث ديفاليرا من ملامح أمه الايرلندية الأصيلة ، أنفها الطويل ، وأذنيهـا المدببتين ، وفمها المقوس ، بينما ورث من ملامح أبيه الاسبانية اتساع فمه ، وسمرة بشرته ، وعينيه العميقتين السوداوين ..

وعاش الصبى سنوات صباه الباكر فى مزرعة خاله بالريف ، على بعد سبعة أميال من أقرب بلدة بها مدرسة ، فكان يستقل اليها كل يوم قطار الصباح ثم يعود آخر النهار على قدميه ، كى لا ينتظر موعد القطار العائد بعد ثلاث ساعات !.. يعود ليلعب كرة القدم ، ويصطاد الطيور ، ويقضى وقتا كبيرا فى المطالعة ، متأثرا بخاله الذى كان على نصيب من العلم والثقافة أهله لأن يخطب فى الاجتماعات السياسية ويبدى اهتماما بحركة حزب العمال الناهض ..

وأظهر ديفاليرا فى دراسته اجتهادا وذكاء ، فحصل فى سن السادسة عشرة على الشـهادة التى أهلته للالتحاق باحدى مدارس العاصمة « دبلن » ، وأثبت اتجاهه الدراسى ميله الفطرى للرياضيات وعلوم الطبيعة ، وسرعان ما عين « مدرسا »

للفصول الصغيرة فى نفس المدرسة ، بينما واصل دراسته للحصول على درجة جامعية ظفر بها سنة ١٩٠٤ .. ثم حصل على دبلوم التخصص فى العلوم الرياضية ، ودبلوم التربية ، فعدة جوائز مالية للتفوق ، وتنقل فى مناصب التدريس من مدرسة داخلية ، الى معهد لتخريج المعلمات ، الى الجامعة .. وخلال تلك السنوات كانت تقارير رؤسائه تصفه بمثل هذه العبارات : **« مجتهد ، متوقد الذهن ، مثابر ، شغوف بالعلم والتحصيل ، محبوب للغاية سواء فى فصول الدراسة أو فى ميادين الألعاب الرياضية ، مواظب على أعماله ، دقيق فى مواعيده ، متألق فى مهنته ، أمين لعمله ، يعتبر نموذجا يحتذى فى التدين والرجولة وتقديس الواجب ! »** .. وبفضل هذه الصفات اقترنت سنواته بين ١٩٠٠ ، ١٩١٠ بالنشاط الخارق والسعى الى عدة أهداف فى وقت واحد : كان يتولى التدريس فى « عدة » مدارس فى نفس الوقت الذى يواصل فيه دراساته فى مختلف أفرع العلوم ؛ من حساب الى هندسة الى فلك الى علم التحليل الطيفى الخ .. وفى آخر العام يختار ممتحنا فى الحساب لطلبة المدارس الثانوية ، وممتحنا فى اللغة لطلبة الطب ، وممتحنا فى الطبيعيات لطلبة الجامعة ، ومدرسا للغة فى مدرسة أهلية ، وناظرا لمدرسة أخرى صيفية ... **وفى احدى تلك المدارس التقى بمن تدعى « جانيت فلاناجان » فعقد زواجه عليها سنة ١٩١٠** .. وهنا ، وقد بلغ الثلاثين وتزوج ، بدا أن حياته قد بلغت مرحلة الاستقرار .. ولكن فى تلك الفترة ، بين عامى ١٩١١ و ١٩١٣ ، لاحت أعاصير السياسة فى الأفق ..

لكن للسياسة قصة أخرى :

الوعى القــومى يســتيقظ ..

● فى الفترة السابقــة من شـباب ديفاليرا لم يكن يفكر فى السياسة من أهل ايرلندا غير قلة ضئيلة . لكن هذه القلة « الثورية » كانت تعمل طيلة الوقت بصبر من يبثون الألغام ! وكانت تنقسم الى فريقين تخلفا عن ثورتى ١٨٤٨ و ١٨٦٧ وأحسن زعيـم ايرلنـدا السـابق « بارنل » اسـتخدامهم فى أعمـال العنف والنسف واقتحـام السـجون واغتيـال أعـداء البـلاد .. ولم يلبث الفريقـان أن اتحـدا وأسسا حزب « السين فين » الذى تألف سنة ١٩٠٠ من اثنى عشر عضوا ، فلم يحل عام ١٩١٣ حتى اشتد ساعده وبأسه ، ففتح للشباب باب التطوع فى صفوفه . وقبل أن ينقضى العام بلغ عدد المتطوعين فيه نحو ١٧٠ ألفا !

وكان ديفاليرا فى مقدمة المتطوعين ، ويصفه لنا أحد مؤرخيه يومئذ بقوله : « كان ديفاليرا مجهولا من الرأى العام فى العاصمة جهلا تاما ، الا بالنسبة لتلاميذه من طلبة الجامعة . وكانت له قامة طويلة تزيد على الستة أقدام . ومظهر جاد صارم ، برغم شبابه .. على أن أغرب ما كان يميزه ثيابه الخشنة المصنوعة محليا ! » .. وترك أستاذ الجامعة أكثر مشاغله ودراساته ليلتفت الى هدفه الجديد ، وضاعف من نشاطه فصارت لياليه تحفل بالمناقشات السياسية الحامية . وكان الوطنيون الثوريون يلتقون ويدبرون خططهم فى عدد من المقاهى والمطاعم العامة بالعاصمة ، منها مقهى « القاهرة » ـ كافيه كايرو ـ بشارع جرافتون .. كما فتحت لهم قصور بعض أنصارهم من المترفين ، ومنهم الكونتة « ماركيفتش » التى حكم عليها الانجليز فيما بعد بالاعدام !

● فى تلك الفترة نشبت الحرب العالمية الأولى ، سنة ١٩١٤ ، فانقسم متطوعو الحزب بشأن موقف ايرلندا منها الى فريقين : أقلية ضئيلة من نحو ١٢ ألفا تطالب بالتزام الحياد ، وأكثرية من ١٦٠ ألفا تنادى بالاشتراك فى القتال الى جانب انجلترا ! وقد كان .. فظلت ايرلندا تمد الجيش البريطانى برجالها حتى سقط منهم فى حومة الحرب خمسون ألفا ، انتثرت جثث أكثرهم فوق أرض « الفلاندر » بفرنسا !.. ورغم ذلك فان أكثرية الشعب الايرلندى لم تكن تشارك الأقلية الثائرة حماسها وتطرفها ، ولم تعمد الى تعضيدها الا حين قامت هذه العناصر بثورتها المسلحة فى سنة ١٩١٦ - كما سيجىء - فأثارت محاولات الانجليز أن يقمعوها بالقسوة الوحشية مشاعر الجماهير ، التى تطورت من الرثاء للضحايا ، الى الاعجاب ببطولتهم ، الى السخط على العدو الغاشم !

الاستعداد للثورة ..

وقد بدأ هدف زعماء « السين فين » ينحصر فى تدبير الثورة منذ مستهل سنة ١٩١٥ ، فراحوا يفاوضون ألمانيا سرا كى تمدهم بالعون والسلاح ، كما أرسلوا مبعوثا منهم الى أمريكا ليؤلب الرأى العام فيها ضد الانجليز .. واشترك ديفاليرا مع رجال المقاومة السرية فى انزال الأسلحة الألمانية الى البر واخفائها فى جهات متفرقة من الشواطىء الايرلندية .. وهكذا لم يحل عام ١٩١٦ حتى كان كل شىء معدا لنشوب الثورة ، وحدد لها بالفعل يوم « الاثنين » الثالث والعشرين من ابريل ، غداة عيد الفصح .. لكن الأمر التبس على قائد الثوار فنشر فى الصحف صباح الأحد (يوم العيد) أمرا بالغاء الاستعراض الشعبى لطوابير المتطوعين ، الذى كان مقررا أن يتخذ ستارا

لبدء الثورة !.. وهكذا أيقن زعماء « السين فين » أنهم لن يجدوا خمسمائة شخص تحت تصرفهم فى الغد ، ومع ذلك قرروا أن يقوموا بالمحاولة اليائسة فى موعدها ، وأرسلوا تعليمات بذلك الى قواد الطوابير الخاضعة لهم ، وكان ديفاليرا واحدا منهم ، فلما تلقى الأوامر أطاعها ، رغم عدم موافقته على تنفيذ الفكرة الجنونية فى تلك الظروف !

بطولة ديفاليرا أثناء الثورة

● وهكذا لم يحل ظهر الاثنين حتى تفرقت « حفنة » من المتآمرين لا يزيد عددهم على الألف والخمسمائة الى المراكز التى حددت لهم ، فاستولوا عليها دون مقاومة ، واتخذوا دار البريد العامة مقرا لقيادتهم العليا ! وفوجئت الجماهير بقراءة منشور مطبوع بحروف ضخمة ألصق على جدران الدار يعلن اقامة الحكومة المؤقتة للدولة الايرلندية المستقلة !.. فكان المارة يقرأونه فيضحكون ويواصلون سيرهم .. ولكن لم يلبث الجو أن تكهرب بالتدريج ، وامتلأت العاصمة بالشائعات . لم يعد الأمر مزاحا بل جدا .. وبعد أن كان الناس يصفون الثوار بأنهم « أطفال » صاروا يصفونهم بأنهم « مجانين » .. وصار الموقف يتطور بسرعة مخيفة ساعة بعد ساعة ، فأقيمت المتاريس فى الشوارع وحفرت الخنادق وحجبت النوافذ بأكياس الرمل ، وصودرت السيارات ، واحتلت ثلاث من محطات السكة الحديد ، وانهمر الرصاص من عدة اتجاهات ، وشاع أن الثوار قد اقتحموا « قصر دبلن » مقر المستعمرين الانجليز ، وأن القوات الألمانية قد نزلت على الشاطىء .. الخ

وهكذا جنت الشائعات .. وفى تلك الأثناء صدرت الأوامر الى ديفاليرا ، قائد الأورطة الثالثة ، بأن يسد الطريق الذى

ستسلكه القوات الانجليزية التى أرسلت لقمع الثورة .. ولم يكن جنوده يزيدون على المائة ، وزع كل ثلاثة منهم على منزل من المنازل المشرفة على الطريق .. وحين وصل الأعداء وبدأت المعركة صار يتنقل بين المتاريس ويواجه النيران بشجاعة خارقة ، غير عابىء بالرصاص المتناثر حوله كالمطر !.. وبعد قتال جبار استمر خمس ساعات ، وقتل فيه من الانجليز ٢٣٤ ، أحدقت مدفعيتهم بالطاحونة التى اتخذها ديفاليرا مقرا لقيادته وأشعلت فيها النيران ، ثم شق طابورهم طريقه الى دار البريد العامة ، مقر قيادة الثوار ، مارا بطرقات خالية الا من الجثث المتناثرة وحطام المبانى المهدمة .

واستمر القتال بين الثوار والانجليز أياما ، أخلى الثوار خلالها دار البريد التى أضرمت فيها النيران ونقلوا قيادتهم الى دار خلفها .. وفى صباح الأحد التالى كان القتال ما يزال دائرا ، يختلط فى الأسماع بدقات أجراس الكنائس .. لكن قائد الثوار أصدر أخيرا أمره الى رجاله بالتسليم ، فصاروا يمرون فيلقون أسلحتهم كارهين عند قاعدة تمثال الزعيم « بارنل » ! وكان الانجليز قد قطعوا جميع المواصلات بين مواقع الثوار فلم تصل رسالة القائد الى ديفاليرا الا بعد حين ، وعندئذ قرأ فيها مستاء هذه السطور : « حقنا لدماء المواطنين وأملا فى انقاذ



أرواح أتباعنا من هذه المذابح، بعد أن أحدق العدو بهم وتفوق عليهم فى العدد والعدة بنسبة كبيرة ، قرر أعضاء الحكومة المؤقتة التسليم بلا قيد ولا شرط » .

وبشق النفس استطاع ديفاليرا اقناع رجاله باطاعة هذا الأمر !.. أما الخسائر فى الأرواح فقد بلغت من الجانبين ثلاثة آلاف ، حتى أن مقبرة « جلاسنفين » وحدها استقبلت أثناء ذلك الأسبوع الدامى ٢١٦ جثة !

ديفاليرا يواجه حكم الاعدام

● لكن ذيول تلك الثورة كانت أفظع .. فقد أعدم الانجليز على أثرها من الثوار والوطنيين البارزين ١٦ ، منهم قائد الثورة ، كما حكموا بالأشغال الشاقة على ٧٣ ، وبالنفى على ٢٣٠٠ !.. **وفيما كان ديفاليرا فى زنزانته بسجن « بولزبريدج » سنحت له ذات يوم فرصة آمنـــة للفــرار ، لكنه أبى التخلى عن زملائه المعتقلين** .. وفى يوم ٨ مايو مثل أمام المحكمة العسكرية التى حكمت على زملائه بالاعدام ، فواجهها بهدوئه ووقاره المألوفين ، متوقعا نفس المصير .. **وقد صرح لأحد الذين زاروه فى سجنه بقوله أنه لا يأسف على مصيره الا حين يفكر فى زوجته وأولاده !**

.. ولكن يبدو أن احتجاجات العالم الحر على اعدام زملائه الاثنى عشر الذين نفذ فيهم الحكم قبله كانت قد بدأت تنتج أثرها ، فلمـا أعلن الحكم الخـاص به يوم ١١ مايو كان نصه « حكمت عليك المحكمة بالاعدام ، ثم استبدلت الحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة » .. فلما حمل اليه رسول الخبر ـ وكان يطالع وقتئذ كتاب « اعترافات القديس أوغسطين » ـ رفع رأسه فشكر الرسول ثم عاد الى كتابه ، فقد أدرك أنه مقبل على مواجهة سنوات لا نهاية لها من الألم والعذاب ..!

الأمانة والبساطة : أهم مؤهلات الزعامة

● وفى السجن صار ديفاليرا يحرض زملاءه ، وكانوا ٦٤ ، على التمرد والاضراب عن الطعام كل حين . وكانوا يقدرون له أنه آخر من كف عن مقاتلة الانجليز فى الثورة ، وانه تعرض للاعدام ، وكان أقرب المقربين الى كل الذين أعدموا .. ومن هنا اختاره المسجونون زعيما لهم . وكان لهذا الاختيار فضل كبير فى الزعامة السياسية التى آلت اليه فيما بعد ..!

فى تلك الآونة كانت انجلترا تنشد عون أمريكا فى الحرب العالميـة ، وكان الايرلنديون ذوو النفـوذ فى الولايات المتحدة قد ألبـوا رأيها العـام ضد انجلترا .. وزادت الموقف سوءا وتعقيدا شدة « لويدجورج » فى معالجته ، وامعان الانجليز فى التنكيل بالوطنيين ، قتـلا واعتقالا ، الأمر الذى أحدث رد فعل مباشر **أجبر انجلترا آخر الأمر على الافراج عن ديفاليرا وزملائه يوم ١٦ يونية سنة ١٩١٧ ، فوصلوا الى دبلن يوم ١٨ ، حيث استقبلوا ـ لدهشتهم ـ استقبال الفاتحين !** ومضت العربات التى تقلهم تشق طريقها وسـط خضم متلاطم من الجماهير المتحمسة التى صمت هتافاتها آذانهم ، والتى ارتفعت حناجرها تنشد « نشيد الجندى » الذى صار منذ ذلك اليوم بمثابة نشيد ايرلندا الوطنى !.. وفى ذلك اليوم رأى الشعب لأول مرة وجه زعيم المستقبل ، ذا القامة الطويلة والعينين المتوقدتين ..

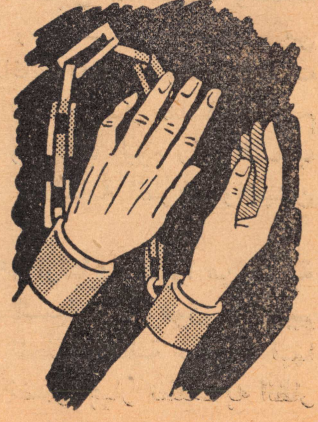
ثم شهد صيف وخريف ١٩١٧ ارتفاع ديفاليرا من مرتبة الرجل المغمور نسبيا الى مرتبة السياسى المرموق والزعيم الوطنى !.. ثم جاءت الانتخابات المحلية التالية فتفوق فيها على منافسيه بنسبة ٢ الى ١ بعد نضال جبار تعلقت به أنظار

العالم كله . وفى أكتوبر اجتمع المؤتمر السنوى لحزب السين فين فى دبلن وانتخب ديفاليرا رئيسا له ، رغم كونه من أضعف الخطباء فى تاريخ ايرلندا ، وأعجزهم عن اثارة مشاعر السامعين ! .. **وكان أهم ما أعجب الشعب فيه أمانته وبساطته واستقلاله فى الرأى .**

السـجن مرة أخـرى !

● وخـــلال الستة أشـهر التالية انحصر نشاط متطوعى السين فين فى هدف واحد : جعل بقاء الانجليز فى ايرلـنـدا مستحيلا !.. لكن ذلك لم يؤد الا الى امعان المستعمرين فى عدوانهم ففرضوا على البلاد حكم الارهاب الغاشم ، وفى ١٨ مايو سنة ١٩١٨ قبضوا على جميع أعضاء السين فين البارزين ، وفى مقدمتهم ديفاليرا ، الذى قضى فى السجن هذه المرة قرابة العام .. ورغم ذلك فحين أجريت الانتخابات العامة فاز هـذا الحزب « غير القانونى » بثلاثة وسبعين من مقاعد المجلس المائة والستة ، وبين النواب الفائزين كان ٣٦ فى السجن ، وثلاثة منفيين ، وستة هاربين من مطاردة البوليس !

وطيلة الوقت لم يكف أنصار الحـزب ، وفى مقدمتهم « كولنز » عن تدبير خطة سرية لتهريب المعتقلين من سجنهم ، ونجحت الخطة ففروا جميعـا يوم الثـالث من فـبراير سـنة ١٩١٩ !.. وبينما تولى كولنز قيادة حركة الكفاح الاجماعى ضد المستعمر فى ايرلندا ذاتها ، انطلق ديفاليرا الى أمريكا حيث



قضى ثمانية عشر شهرا ينشر الدعاية لوطنه فى طول البلاد وعرضها ، فيعقد الاجتماعات ويلقى الخطب ، ويؤلب الرأى العام الأمريكى ضد بريطانيا ، ويجمع الأموال والاكتتابات لحكومته الاسمية التى كانت ما تزال حبرا على ورق .. وقد نجح فى مهمته نجاحا هائلا ، وأثار اعجاب العالم بنشاطه ومثابرته . كان يعمل ستة عشر ساعة كل يوم ، وقطع خلال تلك المدة عشرة آلاف من الأميال .. لكنه فشل فى مهمته السياسية : فى اقناع ساسة « فرساى » الأربعة الكبار بسماع قضية ايرلندا ، وتحقيق أمانى شعبها فى الحرية .. وهكذا كانت ايرلندا أولى الدول الصغرى التى أزاحت القناع عن خدعة مؤتمر فرساى ومزاعم الرئيس ويلسون فى صدد حق تقرير المصير !

مذابح الوطنيين فى ايرلندا

عاد ديفاليرا الى وطنه فبلغه يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢٠ ، وكان الصراع بين الوطنيين الايرلنديين بزعامة « كولنز » وقوات « بلاك اند تانز » الانجليزية قد بلغ أقصى حدته ووحشيته ، فاشتدت من جانب الأولين عمليات المقاومة والحرب الخفية ، واشتدت من جانب الأخيرين « غاراتهم » الليلية على دور الثوار وقتلهم بالرصاص فى التو واللحظة أمام أبصار زوجاتهم وأولادهم ، أو انتزاعهم من عربات الترام واعدامهم فى وضح النهار !.. الى غير ذلك من الجرائم الوحشية ، مثل حرق المبانى والمتاجر والمصانع والمحاصيل بواسطة جنود الاحتلال السكارى بغية نشر الفاقة والمجاعة .. **ثم مذابح المدنيين بأيدى قوات « التاج » ، التى أعادت ذكرى فظائع الأتراك أو البلاشفة ، أو ذكرى أسوأ مراحل حروب**

العصابات بين الانجليز واليهود فى فلسطين،وبينهم وبين الهنود فى الهند ..!

واستمرت الحال على هذا المنوال سبعة أشهر كان ديفاليرا خلالها ـ وهو الرئيس الرسمى المنتخب للجمهورية الجديدة ـ دائم التنقل من مخبأ الى مخبأ ، شاحب الوجه من فرط الاجهاد والمسؤولية والقلق ، والاحتجاب عن الشمس والهواء !... **وأخيرا ، وبعد عدة محاولات لجس نبض زعماء ايرلندا ، اضطر لويد جورج ـ تحت ضغط اشمئزاز الرأى العام العالمى ـ الى العدول عن سياسة العنف والقوة ، فأرسل الى ديفاليرا خطابا يقترح عليه فيه عقد مؤتمر فى لندن للبحث فى امكان الوصول الى اتفاق !**

وبعد مفاوضات استمرت خمسة أشهر قدم الانجليز فى ٢ ديسمبر ١٩٢١ اقتراحا انقسم بصدده مجلس الوزراء الايرلندى ، فقبله « كولنز » و « جريفث » وآخر ، ورفضه وزيران ، يؤيدهما ديفاليرا رئيس الجمهورية .. فعاد الوفد الايرلندى لاستئناف المفاوضات ، وفى احدى الجلسات هدد لويد جورج مفاوضيه باشعال نار حرب رهيبة مدمرة بين البلدين فى خلال ثلاثة أيام اذا لم يقبلوا الشروط المعروضة !.. وتحت ضغط هذا التهديد قبل الوفد الايرلندى المعاهدة المعروضة ووقعوها فى الساعة الثانية والربع من صبيحة الثلاثاء ٦ ديسمبر سنة ١٩٢١ .

الحرب الأهلية ..!

لكنهم حين عادوا الى وطنهم واجتمع مجلس الوزراء لبحث الموضوع أصطدم الموقعون برفض ثلاثة وزراء للمعاهدة الجديدة ، وكان ديفاليرا على رأس المعارضين !.. ثم اجتمع

الحزب فى ١٤ ديسمبر ، وظل يدرس المعاهدة ثلاثة أسابيع ، **كانت من أمر الأسابيع التى مرت بايرلندا .. فقد احتدم فيها الجدل والشقاق ، وانقسم الحزب على ذاته ، بل انقسم كل بيت على ذاته !** وانحازت الصحافة بأجمعها الى صف المؤيدين للمعاهدة ، المعارضين لرأى ديفاليرا .. وقد أظهر الزمن أن كتلة الشعب أيضا كانت فى صف معارضى ديفاليرا ، بل ان الحقيقة والواقع كانا فى صف معارضيه ، اذ لم يكن فى طاقة ايرلندا أن تواجه حربا ثانية ضد الانجليز ، سيما وهى فى تلك الحال من الانقسام وتفرق الكلمة !.. وهكذا لم يكن فى صف ديفاليرا غير شىء واحد : الرمز .. سيادة ايرلندا .. الحلم الوطنى القديم !

وظهر الانقسام رسميا حين عرضت المعاهدة على البرلمان فأيدها ٦٤ نائبا وعارضها ٥٧ .. **واذ ذاك نهض ديفاليرا وقد بلغ به الانفعال غايته ، كى يطالب بحفظ النظام .. لكنه لم يلبث أن خار وتهالك فى مقعده يبكى ، وقد دفن وجهه بين يديه !**

ثم بلغت المهزلة أقصاها حين اجتمع النواب الذين أقروا المعاهدة فألفوا حكومة وقتية ، وبذلك صارت لايرلندا ثلاث حكومات ــ وثلاثة جيوش ! ــ عدا الحكومة البريطانية التى كانت ما تزال تسيطر على الجزء الجنوبى منها !

وكانت تلك بداية الحرب الأهلية : بين جيش أنصار ديفاليرا ، أو « الثوار » كما صار يطلق عليهم ، من جانب .. وجيش أنصار المعاهدة وعلى رأسهم الزعيمان كولنز وجريفث من جانب آخر ! .. واستمر القتال المروع المدمر بين الجيشين طيلة ذلك الصيف . وفى ١٣ أغسطس مات جريفث من فرط الاجهاد ، وفى ٢٢ أغسطس مات كولنز وهو يقاتل .. **وازداد القتال**

عنفا وضراوة يوما بعد يوم ، حتى فاقت وحشية الوطنيين في مقاتلة بعضهم البعض وحشية الانجليز فى مقاتلتهم !.. وفى الخريف بدأت حركة اعدام الأسرى من الثوار ، ثم الانتقام لهم من قاتليهم ! فأعدم من الأولين ٧٧ أسيرا . **وخلال تلك الفترة عاش ديفاليرا حياة أشبه بالجحيم ، وبدت على وجهه آثار ما عاناه ! ان كل ما قاتل من أجله وكرس له حياته قد بات الآن أنقاضا ..** انه الآن فى الأربعين ، وقد أقصته أكثرية الشعب عن مركز الزعامة ، ولم يلتفت اليه الباقون الا حين أيقنوا من أن الدائرة قد دارت عليهم ، وعندئذ استداروا اليه فقط كى يعهدوا اليه بمهمة اعلان الهزيمة !

ومع تقدم الربيع ازداد وجوب التسليم وضوحا . كان قد سجن من الثوار اثنا عشر ألفا ، وصار جيشهم عصابة يائسة منهوكة القوى .. وأخيرا ، فى ٢٧ ابريل سنة ١٩٢٣ ، أصدر ديفاليرا وقائد جيشه بيانا مشتركا بالكف عن القتال .. وكانت تلك ذروة مأساة الرجل « المثالى » ، فى عالم يقوم على المساومات !

ثم تتابعت الأحداث بسرعة .. فأجريت الانتخابات العامة فى أغسطس ، ورشح ديفاليرا نفسه فيها .. **وفيما هو يخطب الجماهير قبض عليه - بواسطة حكومة بلده هذه المرة ! - وزج به فى السجن ، للمرة الثالثة ، حيث بقى فيه قرابة عام ،** يقرأ كتب « اينشتين » وغيره من علماء الرياضيات ، أو يلعب كرة اليد مع الضباط الشبان فى فناء السجن !.. وفى يوليو سنة ١٩٢٤ فتحت له أبواب السجن ، وتركوه يخرج حرا .. فقد أمسى فى نظرهم رجلا لا خطر منه ، ولا وزن له !

ديفاليرا يتولى الحكم ..

لكنه استأنف زعامته النشطة لحزب السين فين ، وبعد عامين حدث انقسام فى الحزب فاستقل ديفاليرا وأنصاره وكونوا شعبة جديدة أو حزبا جديدا باسم « فيانا فيال » .. وعلى أثر انتخابات سنة ١٩٣٢ تولى ديفاليرا الحكم ، فعمل على تنفيذ برنامج واسع النطاق يهيىء ايرلندا « للاكتفاء الذاتى » بمواردها والاستغناء عن المعونة الانجليزية خاصة والخارجية عامة .

وفى سنة ١٩٣٣ ثم فى ١٩٣٨ - ١٩٣٩ انتخب ديفاليرا رئيسا لجمعية عصبة الأمم ،فكانت سياسته قائمة على المعارضة فى فرض العقوبات العسكرية على الدول الخارجة على ميثاق العصبة . كما كان حازما بصفة خاصة فى تأييد سياسة عدم التدخل فى الحرب الأهلية الاسبانية . وفى سنة ١٩٣٨ عقد اتفاقا مع رئيس الوزارة البريطانية « نيفل تشمبرلين » حصل لبلاده بمقتضاه على عدة قواعد بحرية هامة ، مقابل تأييده لسياسة التهدئة .. وبعد نشوب الحرب العالمية الثانية التزم حياد ايرلندا المطلق فى النزاع بين بريطانيا والمحور ، رغم الأعاصير التى أحاطت بهذا الموقف والصعوبات التى اكتنفته !..

واليوم ، وقد بلغ السبعين من عمره ، ما يزال ديفاليرا الزعيم الشعبى لايرلندا ، الذى ترمقه العيون وتحوطه القلوب والأفئدة !

الحياة قصة



روائع القصص العالمى

عزيزى القارىء ...

لاشك أنك تحس أحيانا بالشوق الى مطالعة روائع القصص العالمية « الطويلة » التى طالما سمعت عنها ولم تقرأها ، لأن وقتك لم يسعفك .. فدعنى أتيح لك اليوم هذه الفرصة فألخص لك كل شهر فى هذا الباب أمتع ما كتب أعلام القصة فى جميع البلاد والعصور ، وهم : زفايج ، ترجنيف ، تولستوى ، دستويفسكى ، جوركى ، جوجول .. موروا ، مورياك ، بورجيه ، جيد ، رومان رولان ، أناتول فرانس ، موباسان ، لوتى ، زولا هوجو ، بلزاك ، ديماس ، دوديه ، فلوبير ، بريفو ، جوتييه ، شاتوبريان ، فولتير ، روسو ، لامرتين ، بروست ، ستندال .. ديكنز ، سومرست موم ، ويلز ، جولزورثى ، لورنس ، جين أوستن ، جورج اليوت ، مارى كوريللى ، جراهام جرين ، برومفيلد ، شارلوت واميلى برونتى ، والترسكوت ، كبلنج ، كولنز ، دى مورييه .. سنكلير لويس ، مارك توين ، بيرل بك ، روبرت لويس ستيفنسون ، هوثورن ، هيمنجواى .. توماس مان ، جوته ، هاينى ، سودرمان ، هاوبتمان .. بلاسكو ايبانيز ، جيوفانى فيرجا ، بيرانديللو ، دانونزيو ، مترلنك ، سلما لاجرلوف ، كاترين مانسفيلد ، كوليت .. الخ .

ستيفان زفايج

غرام
تحت سماء الشرق !





فى مارس سنة ١٩١٢ وقع أثناء تفريغ شحنة احدى السفن الألمانية الكبرى فى ميناء نابولى حادث غريب اختلفت بشانه الروايات وتضاربت أقوال الصحف فى تفسيره وتعليله !.. ورغم أنى لم أكن من شهود ذلك الحادث ـ اذ كنت قد آثرت ، مثل أكثر الركاب ، تجنب الضجيج الذى يصحب تفريغ السفينة وشحنها ، فمضينا كى نقضى الأمسية على الشاطىء متسكعين بين مقاهى المدينة وملاهيها ـ لكن المصادفة البحتة أتاحت لى مع ذلك أن أقف على حقيقة الحادث المذكور وأسبابه الخفية !.. واليوم ، بعد انقضاء أعوام طويلة على وقوعه ، لست أرى سببا يبرر احجامى عن قطع حبل الصمت الذى التزمته بشانه حتى الآن ..!

كنت قد ركبت تلك السفينة من « سنغافورة » ، بعد أن تلقيت برقية تدعونى الى قطع جولتى فى أنحاء بلاد « الملايو » والعودة على عجل الى ألمانيا .. وكانت السفينة مزدحمة بالركاب بحيث لم أجد لنفسى فيها غير قمرة (كابينة) صغيرة حارة ومعتمة ، بجوار عنبر الآلات ، حيث الهواء الخانق الراكد المشبع برائحة الزيوت ، وحيث ضجيج المحركات المستمر الرتيب ينبعث من أسفل ، ووقع خطوات الركاب التى تخفق فوق ظهر السفينة يهبط من أعلى .. وهكذا لم أكد أرتب متاعى حتى فررت من قمرتى الى السطح حيث جلست أجرع أنفاسا عميقة من نسيم البحار الجنوبية المعطر ..

لكن زحام المسافرين وثرثرة النساء وهن مسترخيات فى مقاعد السطح المريحة لم تلبث أن أثارت أعصابى وحرمتنى من الراحة التى كنت أنشدها بعد رحلتى الشاقة فى الملايو وبورما وسيام .. فلبثت ثلاثة أيام عاجزا عن الخلوة بنفسى سواء فوق السطح أو فى صالون السفينة الزاخر بالركاب ، وكنت قد حفظت وجوههم جميعا عن ظهر قلب ، فلم أكد أنفض يدى من الغداء بعد ظهر اليوم الثالث حتى جررت ساقى عائدا الى قمرتى الخانقة ، حاملا معى بضع زجاجات من البيرة رجوت أن تعيننى على النعاس ..

وأغفيت فعلا .. وحين صحوت كان الظلام حالكا ، وقد انتصف الليل ، والجو الخانق فى « نعشى » الضيق أشد وطأة مما كان .. فنهضت وأخذت طريقى الى سطح السفينة ، حيث كان السكون تاما شاملا ، والهواء مشبعا بعطر الجزائر الاستوائية البعيدة .. ولأول مرة منذ ركبت السفينة أحسست بشوق لا يقاوم الى أن أحلم ! بل برغبة شبه حسية فى أن أسلم جسدى ،

كما تسلمه المرأة ، الى عناق الليل الناعم . أردت أن أستلقى على ظهرى وأسرح بصرى فى السماء التى تطل منها النجوم كأنها ثقوب تتخلل « ستارة » من القطيفة السوداء .. فجلست فى مؤخرة السفينة مسندا ظهرى الى حاجزها ، وأغمضت عينى وأسلمت نفسى لسحر ذلك الليل الثمل ..

حتى أعادتنى الى حواسى سعلة جافة بالقرب منى ، وعندئذ فقط تنبهت الى شبح كان قد قبع بلا حراك فى أحد الأركان ، فلم يبد منه فى الظلام غير لمعة نظارته وبصيص ضئيل لجمرة غليون يدخنه ..

وانتابنى على الفور شعور بأننى تطفلت على خلوته ، فغمغمت معتذرا دون وعى : « آسف ! » .. لكنه أجابنى متأدبا : « لا داعى للأسف » .. وخيل الى أنه يحدق فى كما أحدق فيه ، دون أن يستطيع أحدنا أن يميز الآخر ! وفى غمرة الحرج الذى أوجدنا فيه صمت كلينا بعد تلك التحية الأولى تناولت سيجارة فأشعلتها ، وعلى ومضة الثقاب الخاطفة لمحت وجه الرجل ، فبدا لى أشبه بوجه غول شرير ، وأيقنت أنى لم أره فى أى مكان من السفينة من قبل ..!

وعاد يضرب بيننا ذلك الصمت الثقيل ، الشبيه بجو قمرتى الخانق .. حتى ضقت به آخر الأمر فنهضت لأنصرف ، محييا الرجل بقولى : « طاب مساؤك » ، فرد تحيتى بمثلها ومضيت .. لكنى لم ألبث أن تبينت خطاه تتبعنى ، واذا هو يرجونى - لأسباب تخصه - أن لا أشير لأحد بحرف الى أنى رأيته منفردا بنفسه فى ذلك المكان أثناء الليل ! فطمأنته وانصرفت ..

لكن غرابة أطواره شغلت أفكارى أكثر من مرة خلال اليوم التالى ، وأنا الشغوف بالألغاز النفسية ، فوجدتنى - كأنما بتأثير احساس داخلى - أستيقظ من نومى فى نفس الموعد من الليلة التالية وبى شوق الى لقاء ذلك الرجل !.. فنهضت وصعدت الى السطح .

ولمحته من بعيد ، فى نفس المكان ، فترددت لحظة ، ثم ندمت فهممت بالرجوع ، خشية ازعاجه .. لكنه أحس بى فدعانى مرحبا الى مجالسته .. وبعد أن تبادلنا بضع عبارات وأشعلنا سيجارتين أدركت من مسلك الرجل أن عنده قصة يتحرق شوقا الى الافضاء بها ، لولا أن قوة داخلية تعوقه !.. وبالفعل لم تنقض لحظات حتى صارحنى بأن الأفكار التى تطن فى رأسه قد بلغت درجة ينبغى معها أن يستأصلها منه ، والا انفجر رأسه !.. فقاطعته مؤكدا له

ترحيبى بسماع قصته ، واذ ذاك اعتدل فى جلسته قليلا ، كمن يتاهب لحديث طويل ، وقال :

●

« ينبغى أن تعلم أولا أننى طبيب ، وأننى من طول ما ألفت تجرد مرضاى أمامى مما يستر عورات أجسامهم ونفوسهم ، لا أرى غضاضة فى أن أتجرد أمامك ، وأنت الغريب عنى تماما ، من كل خجل زائف ونفاق يستر عورة نفسى وروحى ، فأكشف لك دخيلتى على حقيقتها ، بما لها وما عليها ..!

« على أثر انتهائى من دراسة الطب عينت طبيبا فى مستشفى بمدينة « ليبزج » ۰ ولو رجعت الى المجلات الطبية الصادرة فى ذلك العهد لوجدت فيها آثار الضجة التى أحدثها اكتشافى لعلاج جديد لأحد الأمراض الشائعة ! ۰۰ لكنى وأنا أتسلق سلم النجاح على هذه الصورة السريعة أصبت بغرام مدمر كان السبب فى تحطيم مستقبلى ، فقد أحببت امرأة خطرة دفعتنى الى أن أسرق من خزانة المستشفى ـ فى نوبة جنون ـ مبلغا من المال !.. واكتشف الحادث بالطبع ، فكان فيه القضاء المبرم على كل أمل لى فى ممارسة مهنتى فى المدينة !.. وصادف أن سمعت فى تلك الآونة أن الحكومة الهولندية مفتقرة الى أطباء يخدمون فى مستعمراتها الاستوائية ، بمرتب مغر ، فهرعت الى « روتردام » حيث وقعت عقدا بالعمل فى تلك البلاد النائية لمدة عشرة أعوام ۰۰ نعم ، وقعت العقد ثم أبحرت الى مقر عملى الجديد وأنا أجهل كل شىء عن ذلك الركن السحيق اللعين من الشرق الأقصى ، حيث لا أنيس للمرء أو رفيق سوى الوطنيين الصفر من أهل تلك البلاد ، والحيوانات !.. وحيث الوحدة القاتلة والوحشة المخيفة التى تلتهم الروح من جسم الانسان وتمتص النخاع من عظامه ! »

ويبدو أننى أبديت هنـا دون وعى حركة خفيفة تنم عن الاحتجاج ، فقد أردف محدثى من فوره : « آه ، أرى انك من المتحمسين للشرق ، ولعلك معجب بالمعابد وأشجار النخيل ، مفعم النفس بسحر المناطق الاستوائية التى طفت بها كسائح ينشد المتعة ، لمدة شهر أو اثنين .. لكن الذى يعيش هناك زمنا طويلا يجد الحياة أشبه بالحياة داخل ناقوس من الزجاج ذى جدران خانقة غير منظورة ! انها تستنفد حيويتك وتجعلك خاملا خائر القوى كالسمك خارج الماء ! ومهما ابتلعت من أقراص الكينين فانك تصاب بحمى الملاريا الخبيثة كل حين . وهكذا تجد الأوربى الذى يقضى عليه بالعيش هناك لا يلبث أن يدمن عادة من العـادات السيئة اللعينة ، فترى البعض يدمنون الشراب ، وآخرون يتعلمون من الصـينيين تدخين الأفيون ، وغيرهم يجدون راحتهم فى ممارسة الوحشية « السادية » والنزوات الجنسية الشاذة !.. ولكم يعـانى المرء هناك من الحنين الى الوطن ، الى السير فى شوارع مرصوفة ، بين مبان مشيدة ، والجلوس فى حجرات ذات نوافذ زجاجية ، بين رجال ونساء من البيض !

« لكنى أكاد أشرد عن الموضوع .. قلت اننى وقعت العقد ثم أبحرت الى مقرى الجديد بعد أيام . **أبحرت وأنا أحلم بالحياة الخلابة تحت سماء الشرق ، وبأشـجار النخيل السامقة ، والغابات الرائعة ، والوحدة ، والسكون !**.. لكنى سرعان ما نلت كفايتى من الوحدة والسكون . فانهم لم يعينونى فى « باتافيا » أو « سورابايا » أو سواهما من المدن الكبرى ، حيث يوجد أناس بيض وناد وساحة للعب الجولف ، وكتب وصحف .. وانما أرسلونى الى مكان ناء عن العمران ، يبعد عن أقرب بلدة

مسيرة يوم كامل ! وكان « المجتمع » فى ذلك المكان يتألف من اثنين أو ثلاثة من الموظفين البيض الأغبياء الذين لوحت الشمس بشرتهم ، وواحد أو اثنين من « المولدين » . وكان مقرى المشيد من الخشب و « الحصر » يقع وسط غابات وأدغال ومستنقعات لا يبلغ البصر نهايتها ...

« ورغم ذلك فقد احتملت المعيشة فى هذا الجو فى البداية ، مستعينا على انفاق وقتى بالدراسة والبحث الطبى ؛ حتى استنفدت متعة الحياة « الجديدة » ، واستنفد الطقس الحار ما بقى من طاقتى الحيوية التى جلبتها معى من أوربا ، فبدأت أدمن الشراب وأفرط فيه ، لعلى أستعين به على احتمال حياتى فى ذلك المنفى الجهنمى حتى نهاية مدة العقد ... »

وفيما هو ينطق بالعبارة الأخيرة كانت يده تتحسس ما حوله فى الظلام ، حتى اصطدمت بشىء تبينت من هيئته أنه زجاجة ، رفعها الرجل فى يده وصب منها فى كأس قدمها لى . كانت كأسا مترعة من الويسكى الجيد !.. فقبلتها منه كى أشجعه على الاستطراد ، بينما رفع هو فوهة الزجاجة نفسها الى فمه ، لعدم وجود كأس أخرى ، وجرع منها جرعة كبيرة .. ثم ساد الصمت لحظة سمعنا خلالها ساعة السفينة تدق الثانية والنصف ، صباحا .. فاستطرد محدثى :

● « على هذا المنوال سارت حياتى عاما بعد عام ، أو بالأحرى « وقفت » ! فقد عشت خاملا جامدا أشبه بعنكبوت قابع فى قلب نسيجه .. وخلال موسم الأمطار الأخير لبثت أسابيع أنصت الى قطراتها تنقر السقف بلا انقطاع ليل نهار ، دون أن يطرق بابى أو تقع عينى على انسان أبيض ! كنت وحيدا فى المسكن مع خدمى الوطنيين وزجاجة الويسكى .. وبلغ حنينى الى العالم المتحضر الذى غبت عنه سبع سنوات انى

عندما كنت أقرأ ، فى قصة ، عن الشوارع المضاءة والنساء البيض .. كانت يدى ترتعش انفعالا !

« فكم بالأحرى يكون شعورى وقد دخل على خادمى ذات يوم ، بعد انقطاع الأمطار ، فاغر الفم مدهوشا .. ليخطرنى بأن امرأة قد جاءت لترانى .. امرأة « بيضاء » !؟

« وساءلت نفسى حائرا وأنا أهبط من الطابق الثانى لألقاها : ترى من تكون ؟ وماذا بحق الشيطان يمكن أن تفعل امرأة بيضاء فى هذه الأدغال ؟!.. ولمحتها جالسة فى الحجرة الداخلية ، وقد وقف خلف مقعدها غلام صينى ، هو خادمها ولاشك . وحين هبت لتحيينى رأيت وجهها مغطى بنقاب كثيف ! وابتدرتنى بالانجليزية فى لهجة سريعة كمن تلقى خطابا محفوظا : « طاب يومك يا دكتور ، ولتغفر لى قدومى على هذا النحو المفاجىء ، دون موعد سابق ، لكنى كنت مارة بسيارتى فى المستعمرة وتوقفت السيارة لعطب طارىء فتذكرت أنك تعيش هنا . ان الجميع يمتدحون براعتك منذ شفيت نائب الحاكم من كسر ساقه .. »

« واستمرت تثرثر فى عصبية ظاهرة أثارت بدورها أعصابى أنا ، فساءلت نفسى وأنا أستمع اليها : لماذا لا تفصح لى عن شخصيتها ، وتنزع نقابها ؟ ترى أهى محمومة ، أم مجنونة ؟.. وانتهزت فرصة توقفها عن الكلام بعض لحظة فدعوتها الى الطابق العلوى ، وهنا أشارت الى خادمها أن ينتظر حيث هو ثم تقدمتنى الى السلم . لكنها لم تكد تدخل حجرة الاستقبال حتى استأنفت ثرثرتها وهى تنقل بصرها بين كتب الأدب التى حفلت بها رفوف مكتبتى ، مبدية اعجابها ببعضها ، معلقة بغير ذلك علي البعض لآخر !.. وحين سألتها ان كانت

ترغب فى قدح من الشاى أجابتنى وهى تواصل تصفح الكتب : « كلا ، شكرا يا دكتور ، فلست أنوى البقاء غير بضع دقائق .. آه ، أتقرأ الفرنسية أيضا ؟ يا لكم من شعب رائع أيها الألمان . انهم يعلمونكم لغات كثيرة فى المدرسة ! »

« ثم أردفت وهى تتصفح أحد الكتب ، متجنبة أن يلتقى بصرانا ، انها قد فكرت فى استشارتى بشأن عارض ألم بها : « انه لا شىء ذو خطر .. مجرد دوار ، ونوبات اغماء وغثيان تنتابنى أحيانا ، لاسيما فى الصباح .. » فسألتها : « منذ متى بدأت تحسين هذه الأعراض ؟ » وأجابتنى : « منذ بضعة أسابيع .. ما رأيك يا دكتور ، انها لا يمكن أن تكون أعراض مرض من الأمراض الاستوائية الخطيرة ؟ » فأجبتها وأنا أقترب منها : « ينبغى أن أقيس أولا نبضك وحرارتك » .. لكنها أجفلت معترضة : « كلا يا دكتور ، أنا واثقة من أن حرارتى طبيعية . انى أقيسها كل يوم .. كما أن معدتى منتظمة على ما يرام » .

« وهنا ترددت برهة قبل أن أعلق على قولها ، فان غرابة أطوارها أثارت شكوكى . أدركت أنها تبغى شيئا منى ، اذ لا يعقل أن تقطع مئات الأميال فى الغابات كى تتصفح كتب الأدب !.. فتركتها تنتظر دقيقة أو اثنتين قبل أن أجيبها : « هل لى أن أوجه اليك بضعة أسئلة واضحة يا سيدتى ؟ » فأجابتنى دون أن تدير وجهها الى : « بلا شك ، فهذا من حقك .. »

— هل رزقت بأطفال ؟

— نعم ، بولد واحد .

— وهل شعرت يومئذ فى الأشهر الأولى للحمل ، بنفس

الأعراض الحالية ؟

ــ نعم ..

ــ هل يحتمل اذن أن يكون ما بك الآن أعراض حمل ؟

ــ نعم !..

ــ اذن دعينى أفحصك كى أعطيك رأيى القاطع ..

وهنا استدارت أخيرا فواجهتنى .. وكدت أحس نظرتها الباردة النافذة تثقب نقابها لتستقر على ، وهى تجيبنى : « كلا ، لا حاجة بنـا الى ذلك يا دكتور .. فليس لدى أدنى شـك فى الأمر ! »

●

وصمت الصـوت المتحدث فى الظلام ، وكان سكون الليـل شاملا بحيث استطعت أن أسمع مقدم السفينة وهو يشق لها الطريق وسط الأمواج ، وأتبين « نبض » محركاتها يخفق من بعيد .. ودقت الساعة الواحدة ، فتنبه محدثى من شروده ورفع زجاجة الويسكى الى فمه ، ثم استطرد :

« كان ما أرادته المرأة منى واضحا غاية الوضوح .. ولم تكن تلك أول مرة تأتينى فيها نساء يلتمسن منى هذا الأمر .. لكنهن كن يجئن متوسلات باكيات ، يناشدننى أن أنقذهن من مأزقهن !.. أما هذه المرأة فكانت ذات ارادة « مسترجلة » غير عادية ، أشعرتنى من البداية أنها أقوى منى ، وأنها قد تستدرجنى الى الاذعان لرغبتها بالرغم منى !.. فثار فى أعماقى شعور بالمرارة والتمرد عليها ، ولبثت برهة صامتا ، صمتا عنيدا ، أحسست خلاله أنها ترمقنى من وراء نقابها ، كأنها تتحدانى وتريد أن ترغمنى على الكلام ! فزادنى ذلك عنادا ورغبة فى ارغامها على الصراحة . أردتها أن تتوسل الى كما كان غيرها يفعلن ! أردت ذلك من فرط تشامخها فى ايضاح الأمر لى ، وتعويضا عن شـعورى بضعفى أمام غطرستها !.. ومن هنا

أجبتها اجابة توحى بأنى لم أفهم الغرض الذى ترمى اليه . قلت لها ان الأعراض التى تشكو منها طبيعية ومألوفة فى حالات الحمل ، ولا خطر منها . ورحت أثرثر فى هـذا المعنى حتى اضطررتها الى أن تقاطعنى زاعمة أن الذى يزعجها من الحمل فى هذه المرة أنها تشكو ضعفا فى القلب !

« وأمعنت فى التغابى ، فعرضت عليها أن أفحص قلبها ! لكنها أوقفتنى قائلة بلهجة « عسكرية » آمرة انها لا تريد اضاعة وقتى ووقتها فى الفحص ، وانها ترجو منى أن أثق بكلامها ، كما وثقت هى بى !.. وكان هذا بمثابة اعلان « الحرب » ، أو القاء القفاز من جانبها .. فلم أتردد أنا من ناحيتى فى التقاطه ، قلت لها : « الثقة يا سيدتى توجب المصارحة التامة ، فواجهينى بطلبك . ولكن قبل كل شىء انزعى نقـابك واجلسى . دعى الكتب جانبا واكشفى أوراقك ، فالمرضى لا يضعون نقابا حين يزورون الطبيب ! »

« وقبلت التحدى ، فجلست ورفعت نقابها . كان وجهها من الوجوه الانجليزية ذات الجمال النادر . وكانت فى مقتبل العمر ، ذات عينين غبراوين مفعمتين اعتدادا وثقة بالنفس ، وان لاح فى أعماقهما ما ينم عن الرغبة المحتدمة ! ولبثنا لحظات نحدق كلانا فى الآخر ، حتى قطعت هى حبل الصمت قائلة :

ـ يا دكتور ، أتفهم أم لا تفهم ما أريده منك ؟

ـ أستطيع أن أستنتج أنك تريدين استئصال حملك .. فهل تقدرين خطورة هذا الأمر بالنسبة لكلينا ؟ وهل تعلمين أن هذه الجراحة محرمة قانونا ؟

ـ أعلم كل ذلك ، لكنى أعلم أيضا أنها تباح أحيانا !

ـ هذا صحيح .. عندما يكون لها مبرر طبى .

ـ فى وسعك ايجاد هذا المبرر ، فانك طبيب ..

« ونظرت الى دون أن يختلج لها طرف ، كأنها تصدر أمرا ، بينما ارتجفت أنا مذهولا من قوة عزيمتها .. لكنى صممت على المقاومة حتى تستسلم هى وترضخ مستضعفة ، فأجبتها :

ـ قد يتعذر أحيانا العثور على مبرر كاف ، لذلك أستحسن عقد « كونصلتو » مع طبيب آخر من زملائى .

ـ لست أريد أحدا غيرك ، لقد جئت أستشيرك أنت !

ـ ولم اخترتنى أنا بالذات ؟ هل لى أن أسأل ؟

« فحدجتنى بنظرة باردة ثم قالت : « لست أرى بأسا فى أن أجيبك . لقد اخترتك لأنك تقطن فى منطقة نائية ، ولأنك لا تعرف شخصيتى ، ثم لأنك مشهود لك بالبراعة .. وأخيرا ـ وترددت ، لأول مرة ! ـ لأنك لن تمكث طويلا فى هذه البلاد ، لاسيما اذا حصلت فى يدك على مبلغ كبير من المال تحمله معك الى وطنك !

« وسرت فى جسمى قشعريرة من هذه « الحسبة » التجارية !.. لا دموع ولا توسلات ، وانما هى قد وزنتنى وقدرت لى ثمنا ثم جاءتنى واثقة من رضوخى لارادتها ! لكن مسلكها هذا أثار حقدى وغيظى ، فسألتها متهكما :

ـ لكنك تقدرين طبعا أن رحيلى سيكلفنى معاشى ؟

ـ المبلغ الذى أعرضه سوف يعوضك عن ذلك ويزيد !

ـ بودى لو تزيديننى صراحة فتذكرين المبلغ الذى حددته ..؟

ـ مائة ألف « جولدن » ، بشيك على بنك أمستردام !

« ارتجفت من الغضب والدهشة معا ! انها قد « اشترتنى » قبل أن ترانى ، وتصرفت فى بملء ارادتها كما لو كنت سلعة !

وجرح هذا التصرف كبريائى بحيث وددت لو صفعتها على وجهها ، **فنهضت واقفا وكيانى يهتز انفعالا .. لكنى لم أكد أنظر الى عينيها حتى أحسست فجأة بأن منظر فمها الأبى الذى يتمرد على التوسل ، ووميض عينيها المتغطرستين ، وجبهتها المتعالية التى تأبى أن تنحنى ، تثير كلها الوحش فى أعماقى .. فاشتعل كيانى بغتة بالرغبة العنيفة المحتدمة !.. ولابد أن شيئا فى تعبير وجهى قد وشى بما يدور فى نفسى ، فقد رفعت المرأة حاجبيها كما يفعل المرء مع شحاذ خرج عن أدبه !..** فى تلك اللحظة أسفر بغضنا المتبادل وانكشف بكل حدته ، فقد أبغضتنى هى لأنها كانت محتاجة الى ، وأبغضتها أنا لأنها طلبت معونتى فى عجرفة بدلا من أن تستجدينى اياها !.. وفى تلك اللحظة من « الصمت » تبادلنا حديثا طويلا صريحا !.. وفجأة ، كما لو كان قد عضنى ثعبان سام ، وثب الى ذهنى خاطر رهيب .. فقلت لها .. قلت لها ...

« لكنك ستسىء فهمى اذا لم أوضح لك أولا كيف نبتت فى رأسى تلك الفكرة المجنونة !

●

وأطرق محدثى ، وجرع مزيدا من الخمر .. وحين استطرد كان صوته أقوى وأعنف :

« لست أحاول أن ألتمس لنفسى الأعذار ، وانما أريد فقط أن أنصف نفسى من سوء ظنك . كنت قد قدمت معونة مماثلة لنساء كثيرات أثناء عملى فى « ليبزج » ، مدفوعا بشهامة الرجل الذى تلجأ اليه امرأة فى محنتها المرة كى ينقذها من الموت أو ما هو أقسى من الموت !.. أما هذه المرأة فقد جاءتنى متخذة مظهر « الليدى » الباردة المترفعة ، التى لا أعدو فى نظرها أن أكون مجرد « أداة » تنفذ لها مشيئتها ، ولا تزيد قيمتى عندها

على التراب الذى تطأه بقدميها !.. **فلم أملك خيالى من أن يتصورها كما لابد قد كانت قبل شهرين أو ثلاثة ، ليلة ألقت بنفسها مضطرمة الحواس بين ذراعى والد هذا الجنين الذى تبغى الساعة أن تهلكه !.. ذلك هو الخاطر الذى تملكنى وتسلط على ، بحيث لم أعد أرى غير جسدها العارى تحت ثوبها ، أو أفكر الا فى أن أنالها ! انها قد جاءتنى وملء نفسها الاحتقار الشامخ ، لكن فى مقدورى أن أذلها بكل سطوة الرجولة والقوة والحرارة التى نالهـا بها وأذلها ذلك العاشق المجهـول !.. فى مقدورى أن أضغط هاتين الشفتين الصارمتين المختلجتين ، وأحس بهذه النفس الأبية المتغطرسة .. مغلوبة على أمرها !**

« هذه هى الفكرة التى أريدك أن تفهم تصرفى على ضوئها . لم أكن قد حاولت قط من قبل أن أستغل صفتى كطبيب ، ولئن فعلت هذه المرة فما كان ذلك عن شبق أو شهوة بهيمية ، لمجرد الاستمتاع بالسطوة الجنسية .. وانما كان دافعى الحقيقى شوقى الى أن أذلها وأقهر كبرياءها ، وأثبت لها تفوقى وتسلطى عليها !.. سيما وانى كنت أحس « ضعفا » خاصا نحو هذه الفئة من النساء المتغطرسات ، الباديات البرود !.. أضف الى ذلك أنه كانت قد انقضت على سبع سنوات لم أضم فيها الى صدرى امرأة بيضاء ، أو أصادف مقاومة من أنثى .. فان فتيات تلك البلاد الوطنيات لسن سوى مخلوقات مستضعفة متهيبة ترتجف نشوة وذهولا حين يتنازل سيد أبيض فينالها ! انهن دائما على استعداد لأن يمنحن أنفسهن عند الطلب ، فى مذلة واحترام وخضوع يفقد المتعة الجنسية طعمها ..

« وهكذا تستطيع أن تقدر مبلغ انفعالى برؤية تلك المرأة المترفعة الأبية ، المفعمة غموضا ، والتى تحمل فى أحشائها ثمرة

عاطفة حديثة العهد .. تدخل بلا تهيب الى « قفص » رجل مثلى ، وحش بشرى منفرد ، جائع ، معزول عن مجتمعات الآدميين !.. تلك هى الأفكار التى اجتاحت رأسى فى تلك اللحظات ، والمشاعر التى تملكتنى فجعلتنى - بوحى رغبة شريرة فى أن أرى غريمتى المتغطرسة متجردة ذليلة ، مستسلمة لشهوتها - أتحامل على نفسى فأقول لها متكلفا البرود وعدم المبالاة :

- مائة ألف « جولدن » ؟ كلا ، لن أقبل هذا المقابل !

« فنظرت الى وقد شحب وجهها ، وسألتنى : »

- كم تطلب اذن ؟

- دعينا نكشف أوراقنا ونتصارح . انى لست تاجرا ، وليست هذه هى الطريقة التى تحصلين بها منى على ما تريدين !

- اذن فأنت ترفض ؟

- أرفض المال مقابلا لما تطلبين !

« خيم السكون على الغرفة لحظة بحيث سمعت أنفاسها تتردد :

- وماذا غير المال تستطيع أن تطلب ؟

- أطلب أولا أن تخاطبينى كرجل ، لا كتاجر .. بحيث اذا وجدت نفسك فى حاجة الى لم تجيئينى مسلحة بذهبك ، هذا السم الذى يتلف النفوس ، وانما توجهت الى بالرجاء - أنا الكائن البشرى - كى أساعدك ..

- اذن فسوف تساعدنى اذا رجوتك ؟

- لم أقل ذلك . انك ما زلت تحاولين المساومة ، ولا تريدين التوسل الا اذا نلت منى وعدا .. كلا ، بل توسلي أولا وعندئذ أجيبك !



« فهزت رأسها فى تحد ، كفرس أصيلة :

ـ لن أتوسل اليك كى تساعدنى .. لخير لى أن أموت !

ـ حسنا ، اذا لم تتوسلى فسأطلب أنا !.. أعتقد أن لا حاجة بنا الى الكلمات ، فأنت تعرفين ما أبغى .. وحين تمنحينني اياه أمنحك معونتى !

« حدقت فى برهة ، ثم

ـ كيف أصور لك فظاعة الأمر ! ـ لانت قسماتها المتصلبة ، وانفجرت ضاحكة .. ضحكت فى احتقار هائل ، سحقنى سحقا ، وأثارنى فى الوقت نفسه .. أصابنى بما يشبه الصاعقة !.. ولم يطل الموقف أكثر من لحظة ، استدارت المرأة بعدها وانفلتت نحو الباب ، فلما بلغته التفتت الى قائلة فى لهجة آمرة :

ـ حذار من أن تتبعنى أو تحاول أن تعرف من أنا .. فاذا فعلت فسوف تدفع ثمن ذلك !

« وفى طرفة عين كانت قد ذهبت !

●

وعاد محدثى الى تردده .. وصمته .. ثم انبعث صوته يثقب الظلام مرة اخرى :

« اختفت زائرتى وراء الباب ، بينما بقيت أنا مسمرا فى مكانى ، وكأن عبارتها الناهية قد نومتنى مغناطيسيا !..

فقد سمعتها تهبط السلم ، وسمعت الباب الخارجى يصفق خلفها ، سمعت كل شىء ، ووددت أن ألحق بها .. لماذا ؟ لألثم قدميها مستغفرا ؟ أو لأضربها ، أو أخنقها !؟ لست أدرى .. على أية حال فان روحى راحت تعدو وراءها ، لكن قدمى عجزتا عن التحرك ، وكأن عبارتها الأخيرة قد أصابتنى بالشلل !.. ومرت الدقائق .. خمس ، أو ربما عشر .. قبل أن أستطيع التحرك . ولكن بمجرد أن خطوت الخطوة الأولى زال القيد الذى كان يغل قدمى ، فانطلقت أهبط السلم وأعدو فى الطريق بأقصى سرعتى .. ولكن دون جدوى ، فانها كانت قد بلغت مكان سيارتها فاستقلتها وانطلقت بها بأقصى سرعتها ..!

« لكنها وان أفلتت منى فقد عرفت كل ما أردت معرفته عنها ، ففى جاوة يتناقل الأهالى أنباء الأوربيين أو « البيض » القلائل بسرعة واهتمام . وكان سائق سيارتها قد قضى فترة زيارتهـا لى فى الثرثرة مع أهل المنطقة .. فعرفت منهم اسم المرأة ، وعرفت أنها انجليزية ، متزوجة من تاجر هولنـدى واسع الثراء ، وانهما يقطنان فى عاصمة الاقليم على بعد مائة وخمسين ميلا ، وان الزوج متغيب منذ خمسة أشهر فى أمريكا لأمور تتعلق بتجارته لكنه سيعود فى خلال أيام ليأخذ زوجته فى رحلة الى وطنها انجلترا ..

« زوجها متغيب منذ خمسة أشهر ؟ وكان واضحا أن حملها لا يرجع الى أكثر من ثلاثة شهور !!

● « حتى هذا الموضع كان من السهل على أن أوضح لك كل شىء ، فان دوافعى الى الوقائع السالفة كانت واضحة لى . أما بعد ذلك فقد صرت أشبه برجل فى غيبوبة . فقدت سيطرتى على نفسى تماما ، ورغم علمى بحماقة تصرفاتى فانى مضيت

فيها .. هل سمعت عن الاصابة بما يسمى « أموك » ؟

ــ تقصد ذلك الخبل أو الثمل المنتشر بين أهل الملايو ؟

ــ انه أكثر من ثمل ، بل أكثر من خبل . انه حالة تجعل الانسان يتحول الى شبه كلب مسعور ، أو قاتل مجنون .. أو قل انها اضطراب عقلى غريب مخيف ينشأ فى الغالب من طقس تلك البلاد الخانق الرطب المغبر الذى يرهق الأعصاب حتى تختل ، ويظهر خللها عند أول أزمة نفسية تصادف الشخص ، كالغيرة الشديدة أو الخسارة الفادحة فى القمار ، فتراه يهب فجأة واقفا ويتناول خنجره ثم ينطلق فى الطرقات يطعن به كل من يلقاه .. وكلما سالت دماء ضحاياه ازداد هياجا وصراخا وتمزيقا ، وقد انتثر الزبد والرغاء على فمه ، فيفر الناس من طريقه صائحين محذرين بعضهم بعضا : « أموك ! أموك ! » ، وهو ماض فى القتل والذبح .. حتى يرديه أحدهم برصاصة كما تقتل الكلاب المسعورة !

« وهكذا كانت حالى أنا فى مطاردة تلك المرأة ! لم أكد أعرف اسمها وأين تقطن حتى عدت مسرعا الى منزلى فجمعت حوائجى الضرورية فى حقيبة ثم انطلقت فى سيارة على عجل الى أقرب محطة للسكة الحديد ، بغير أن أخطر ضابط المنطقة أو أدبر احلال طبيب آخر مكانى !.. ثم ركبت أول قطار الى العاصمة فبلغتها بعد اثنى عشر ساعة ، واتجهت مباشرة الى دارها حيث أعطيت الخادم بطاقتى .. لكنه عاد يقول لى أن سيدته ليست على ما يرام ولا تستطيع أن تستقبل أحدا !.. فخرجت أتسكع فى الطرقات حتى صادفت فندقا استأجرت فيه غرفة وطلبت زجاجتى ويسكى جرعتهما عن آخرهما فى تلك الليلة ، بل وجرعت فوقهما جرعة قوية من « الفيرونال » قبل أن أغيب

أخيرا عن وعيى فى اغفاءة عميقة كانت بمثابة فترة الراحة الوحيدة فى ذلك السباق الرهيب بين الحياة والموت ..! »

●

ودقت الساعة الثانية ، فأزعجت دقاتها المفاجئة محدثى ، الذى رفع كعادته زجاجة الخمر الى فمه قبل أن يتمالك روعه فيستطرد :

« ومن العسير أن أصف لك حالى فى الصباح التالى ، فقد كنت أشبه بمحموم ، بل كنت أعانى ثورة نفسية تقرب من الجنون ! كيف لا ولم يكن قد بقى على موعد وصول الزوج الغائب غير ثلاثة أيام تعسة هى كل فرصتى لانقاذ المرأة من مأزقها !؟ .. وكنت الآن على استعداد لأن أرتكب جريمة كى أتمكن من انقاذها وأعتذر لها عن حماقتى الجنونية .. ولكن ، كيف السبيل الى ذلك وهى تجهل نيتى ومن ثم ترفض رؤيتى ؟!.. كان موقفى أشبه بموقف شخص يعدو وراءك كى يحذرك من قاتل ، فاذا أنت تحسبه هو بعينه القاتل فتمعن فى الفرار منه ، نحو حتفك !

« وفى غمرة يأسى وحيرتى خطر لى أن أزور نائب الحاكم ، الذى كنت قد عالجته من كسر ساقه ، كى أشغل نفسى عن التفكير المضنى فى مشكلتى بعض الوقت .. فرحب الرجل بى ايما ترحيب ، ودعانى الى حفلة ساهرة تقام فى المساء فى دار الحاكم العام ويحضرها علية القوم وزوجاتهم .. ووثب الى ذهنى خاطر مشجع : ترى هل ستحضرها « هى » ؟

« وقبل موعد الحفلة بأكثر من ربع ساعة كنت هناك . وبعد فترة خلتها دهرا بدأ المدعوون الآخرون يتوافدون .. **وفجأة ، رأيتها تدخل القاعة ! هى بعينها ! وكانت ترتدى ثوبا للسهرة من الحرير الأصفر تبدو منه كتفاها العاجيتان عاريتين .. ورغم أنى تعمدت الاقتراب من مكانها أكثر من مرة ، فانها لم ترنى ، أو بالأحرى لم ترد أن ترانى ! ورأيتها تتحدث وسط**



جماعة من المدعوين فى طلاقة ومرح .. فجن جنونى ، رغم يقينى بأن مرحها متكلف ! كيف لا وقد كنا فى مساء الأربعاء ، وزوجها قادم يوم السبت ؟ .. ورحت أحدث نفسى فى غيظ : « كيف تستطيع أن تبتسم هكذا فى غير مبالاة ، وتعبث بمروحتها ، بدلا من أن تحطمها بقبضتها المتقلصة ؟ .. أنا الغريب كنت أرتجف هلعا مما ينتظرها .. أنا الغريب تألمت يومين كاملين لألمها ، فهل يمكن أن تكون ابتسامتها الا قناعا يخفى العاصفة التى تصطرع فى أعماقها ؟

« وانبعثت من القاعة المجاورة أنغام موسيقى الرقص ، فتقدم ضابط فى منتصف العمر يطلب مراقصتها ، فأعطته ذراعها وسارت معه نحو حلبة الرقص . وكان لابد أن تمر بالقرب منى ، فلما التقى بصرانا أجفلت قليلا ، لكنها تمالكت نفسها فأومأت الى بحركة ودية وغمغمت بصوت ناعم : « طاب مساؤك يا دكتور » ثم مضت فى طريقها !.. واستبدت بى الحيرة : ما الذى جعلها تحيينى علانية ؟ أهى محاولة منها للتقرب ، وعرض للصلح ؟ أم أنها فعلت ذلك بتأثير المفاجأة ؟ كل ما أستطيع الجزم به أن عبارتها ونظرتها قد أثارتا من جديد كامن انفعالى ، فلم أستطع نقل بصرى عنها طيلة الرقصة .. فلما مرت بى بعد انتهائها وهى متعلقة بذراع مراقصها رمقتنى بنظرة غاضبة

آمرة ، كأنها تقول : « لا تلفت الأنظار الى على هذا النحو الفاضح ! » .. وانى لموقن الآن – وأنا أعض اصبع الندم – أننى لو انصرفت ساعتئذ فى هدوء ثم طرقت فى الغد بابها فانها كانت ستستقبلنى مرحبة .. فقد كان كل ما تبغيه منى أن أتصرف بحكمة وتكتم ! لكنى برغم ادراكى ذلك وجدتنى مسوقا بقوة لا تقاوم الى ملاحقتها بخطواتى ونظراتى الفاضحة اينما تحركت ، كانسان يسير فى نومه أو دمية شدت اليها بخيوط غير منظورة !.. حتى نفد صبر المسكينة آخر الأمر فاستأذنت من مضيفيها فى الانصراف ، متعللة بالتعب ، وأومأت لنا برأسها ايماءة ودية شملتنى مع الآخرين ، ثم استدارت مبتعدة .. لكنها لم تكد تبلغ أقصى القاعة حتى تنبهت أنا فجأة الى أن الفرصة التى طالما تحينتها للتفاهم معها والتكفير عن فعلتى توشك أن تفلت منى ، ربما الى غير رجعة .. **فلم أدر الا وقد انطلقت أعدو عبر القاعة الفسيحة محاولا اللحاق بها !.. وتطلعت الأنظار كلها الى بطبيعة الحال ، ففلبنى الاحساس بالعار ، لكنى عجزت مع ذلك عن التوقف حتى لحقت بها فعلا عند الباب ، فاستدارت الى وعيناها تقدحان بشرر خفى ، وخياشيمها تختلج ازدراء .. لكنها فى طرفة عين تمالكت غضبها وانفجرت ضاحكة ، ثم قالت ببديهة حاضرة وصوت مسموع من الجميع :**
« آه ، أحسبك قد تذكرت أخيرا يا دكتور تذكرة الدواء التى طلبتها منك لابنى الصغير .. يا لضعف ذاكرتكم يا رجال العلم ! »

« وأعجبنى حسن تخلصها ، واستجبت لحيلتها البارعة ، فأخرجت دفتر تذاكرى الطبية من جيبى ونزعت منه تذكرة « بيضاء » قدمتها اليها وأنا أتمتم معتذرا .. فتناولتها منى مبتسمة وحيتنى ثم انصرفت !.. وأيقنت أنها قد أنقذت

الموقف ، لكنى أيقنت أيضا أن موقفى الشخصى منها قد صار ميؤوسا منه ، وانها لابد باتت تمقتنى وتزدرينى بحيث أنى مهما طرقت بابها فسوف تردنى فى كل مرة خائبا كالكلب !

« وفى نوبة يأسى الغامر اتجهت صوب البار ، وقد تمزقت أعصابى ، فجرعت أربع كؤوس متوالية من الخمر ثم تسللت الى الخارج من باب جانبى ، كاللص ، متجنبا تعريض نفسى للعيون الساخرة .. **وحين احتوانى الطريق سرت بمحاذاة أرصفة الميناء ، أحدق فى المياه السوداء ، وضحكة الازدراء التى قابلت بها المرأة مراودتى الدنيئة لها فى لقائنا الأول ترن فى أذنى كالطبل المدوى ، مختلطة بضحكتها الأمر والأنكى التى تسترت بها الليلة على حماقتى الجديدة !..** وشعرت بأسف موجع على أنى لم أحمل معى مسدسى ، كيما أفرغ رصاصه فى رأسى وأنهى آلامى فى قاع هذه المياه الساكنة .. وتمكنت منى هذه الفكرة فمضيت أجرجر ساقى المتعبتين نحو غرفتى بالفندق وقد اعتزمت أن أضع لحياتى حدا !

« ولئن كنت قد تراجعت عن عزمى فى تلك الليلة ، فما كان تراجعى بدافع الجبن .. بل بدافع الفكرة التى تملكتنى كالكابوس المروع فجن لها جنونى : فكرة أن المرأة ما تزال فى حاجة الى ، فقد كنا مقبلين على صباح الخميس ، ولن ينقضى يومان حتى يصل زوجها ! ولم يكن يساورنى أدنى شك فى أن هذه المرأة الأبية لا يمكن أن تعيش لتواجه العار الذى يلحقها من انكشاف زلتها !.. **وهكذا قضيت تلك الليلة أذرع غرفتى كالمجنون وأنا أدير هذه الأفكار فى رأسى ، وأبحث عن مخرج للمرأة من ورطتها ، ولى من ورطتى !.. كيف أصل اليها ، وأقنعها بحسن نواياى ؟**

« وأشرق على الصباح وقد استقر رأيى على الكتابة اليها .. فتهالكت على مقعدى وبدأت أكتب لها ، أى شىء ، كل شىء ، خطابا ذليلا سألتها فيه الصفح والمغفرة ، واصفا نفسى بالشر والخبل .. ثم ناشدتها أن تثق بى ، وتضع نفسها بين يدى ، رغم ما حدث ، كى أنقذها من محنتها الحاضرة .. وأقسمت لها اننى سوف أختفى بعد ذلك من البلدة ، من المستعمرة ، بل من الدنيا كلها ، ان أرادت !

« وسودت من هذا الكلام عشرين صفحة .. كان خطابا عجيبا أشبه بهذيان مخبول أو محموم ! وحين فرغت منه كنت أتصبب عرقا ، والغرفة تدور بى .. وفجأة خطر لى أن أضيف عبارة قد تلمس قلبها ، فاختطفت الريشة وكتبت على ظهر الورقة الأخيرة : « سأنتظر منك كلمة صفح ، فاذا لم تصلنى حتى الساعة السابعة مساء فسوف أطلق الرصاص على نفسى ! » .. ثم غلفت الخطاب وأرسلته مع أحد الخدم .. ولم يبق أمامى غير انتظار الرد !

●

وعاد محدثى يتلمس فى الظلام زجاجة الخمر ، ويجرع منها جرعة كبيرة . وفيما هو يعيدها الى مكانها بحركة عصبية انقلبت وسال ما بقى فيها ، فطوح بها بكل قوته الى البحر .. وبعد لحظات من الصمت الأخرس استطرد فى انفعال المحموم :

« انى لم أعد أومن بالله ، أو أخاف الجحيم .. فانه لا يمكن أن يكون أفظع مما قاسيته خلال الساعات التالية التى انقضت على فى تلك الحجرة الضيقة التى ألهبتها شمس الظهيرة ، وأنا أحدق فى عقارب الساعة الموضوعة على المنضدة أمامى ، والمسدس المجاور لها .. دون أن أتحرك ، أو آكل ، أو أشرب ،

أو حتى أدخن .. وانما أتابع عقرب الثوانى فى دورانه اللانهائى وأنتظر ، وأنتظر .. كلا ، محال أن أن أصف لك عذاب ذلك اليوم ! حسبى أن أقول لك أنى لست أفهم كيف يمكن أن يقاسى انسان تلك التجربة ولا يفقد عقله !؟

« وفى الساعة الثالثة والدقيقة الثانية والعشرين سمعت طرقا على الباب ، ورأيت أمامى غلاما يحمل ورقة مطوية ، بلا ظرف .. فاختطفتها منه ، وغامت السطور أمام عينى ! لم أستطع أن أميز حرفا حتى غمست رأسى فى الماء البارد فهدأ روعى قليلا وأمكننى أن أقرأ هذه العبارة : « فات الأوان ! ومع ذلك يحسن أن تبقى حيث أنت ، فقد اضطر الى استدعائك فى النهاية » !

« وكانت الرسالة بغير توقيع ، ومكتوبة بخط مضطرب ، ينبىء بالانزعاج ، أو العجلة ، أو الرعب ، لست أدرى !. فانقبض قلبى ، لكنى أحسست مع ذلك بشىء من الارتياح الخفى : انها قد كتبت الى آخر الأمر .. وصار حتما على أن أعيش كى ألبى نداءها حين تستنجد بى ! وأرضت هذه الفكرة غرورى فسبحت فى دوامة من الخيالات والآمال المجنونة ، كنت خلالها بين السبات واليقظة .. **وفجأة انتفضت منها ساعة الغسق على صوت طرق لحوح على الباب ، وفى قفزة واحدة كنت أفتح الباب للغلام الصينى ، الذى هتف بى وقد شحب وجهه : « سيدى ، أسرع ! » .. فهبطت معه السلم عدوا الى حيث كانت عربة تنتظر أمام الباب . وسألته والعربة تنطلق بنا : « ماذا حدث ؟ » فنظر الغلام الى ، واختلجت شفتاه ، لكنه لم ينطق بحرف !..** ومضت العربة بنا من الحى الأوربى الى الأحياء الوطنية المزدحمة بالمارة ثم الى الحى الصينى ، حيث

دلفت بنا الى حارة ضيقة .. ثم توقفت أمام منزل عتيق كئيب فى مدخله حانة أو ماخور من مواخير ممارسة الرذيلة وتدخين الأفيــون وايواء اللصوص ، التى تديرها فئــة وضيعة من الصينيين فى جميع المدن الكبرى ببلاد الشرق الأقصى ..

« وطرق الغلام الباب ، ففتح مواربا فى حذر وأطلت منه عجوز صينية ، فدفعت الباب بكتفى واقتحمت المكان عبر ممر ضيق قادنى الى غرفة صغيرة معتمة تنضح برائحة الخمر والدم !.. وسمعت صوت أنين فاتجهت نحو مصدره وأنا لا أكاد أميز شيئا فى الظلام .. وهناك وجدتها ، راقدة على حشية قذرة تتلوى من الألم وتئن وتحشرج ، فمددت يدى أتلمس يدها ، واذا هى ملتهبــة من الحمى ! وارتجفت وأنا أدرك حقيقــة ما حدث : لقــد لجأت التعسة الى هذا الماخور القذر فى طلب الخدمة التى ضننت بها عليها ! التمستها من قابلة جاهلة عاثت فى جسدها افسادا وشعوذة ..!

« وصرخت فى طلب النــور ، فجاءتنى الشمطاء الكريهــة بمصباح بترول ذى فتيلة مدخنة ! وددت لو أزهق أنفاسها ، ولكن ماذا كان يجدى ذلك فى الموقف ؟.. وانطرح ضياء المصباح الشاحب على جسد الضحية المهيضة ، وللحال نسيت غضبى وانفعالى وصرت ــ فى طرفة عين ــ الطبيب الذى يخف بعلمه وفنه لاسعاف مريضة تتألم ، ويقبل على الاشتباك فى معركة مع قوى الفناء والعدم !

« ومررت بيدى على الجسد العارى الذى اشتهيته منــذ قليل ، فلم أر فيه الآن غير جسد مريض ينازع الموت بكل ما بقى من قواه . وتبينت أن المعركة تكاد تكون خاسرة ، ما لم تحدث معجزة .. فقد غاض من الجريحة دم الحياة أو كاد ، ولم يكن

حولى فى الماخور القذر شىء أستعين به على ايقاف النزيف ، ولا حتى وعاء نظيف وماء غير ملوث !.. فهتفت بالجريحة فى لوعتى : « يجب أن أنقلك الى المستشفى فورا » .. لكنها ناشدتنى متوسلة بصوت باك اجتمع فيه عذاب النفس الى عذاب الجسم : « لا ، لا ، بل أفضل أن أموت .. ينبغى أن لا يعلم أحد ! خذنى الى البيت .. »

« وفهمت .. كانت سمعتها أغلى عندها من حياتها !.. فهمت ، وأطعت .. فحملناها نصف ميتة على محفة الى مخدعها ، حيث بدأ الصراع .. الصراع الطويل العقيم ، مع الموت !

●

وهنا ضغط محدثى ذراعى بغتة حتى كدت أصيح من الألم والدهشة ، واقترب بوجهه منى فلمعت أسنانه وزجاج نظارته فى ضوء النجوم الشاحب قيد شبر من أنفى .. وحين استأنف اعترافه كان صوته مزيجا من الفحيح والحشرجة .. كان ينشج بقدر ما كان يتكلم :

« .. هل تفهم معنى أن ترى انسانا يموت ؟ هل جلست يوما على حافة فراش شخص يحتضر ، ورأيت الرعب المروع يرتسم فى عينيه ؟ لقد قاسيت أنا ـ كطبيب ـ هذه التجربة مرارا ، ودرست الموت كواقعة « طبية » ، لكنى لم ألمسه عن كثب غير مرة .. مرة واحدة عشت مع انسان ، ومت معه !.. مرة واحدة فقط ، منذ بضع ليال ، حين سهرت أمام فراش ضحيتى أنهش ذهنى تنقيبا عن طريقة لايقاف سيل الدماء النازفة ، واطفاء حدة الحمى التى كانت تفترسها أمام عينى ، وأنا عاجز عن انقاذها !.. هل تعرف معنى أن تكون طبيبا ، مهمتك الوحيدة اغاثة المرضى ، ثم تجلس مع ذلك مسلوب الحول

والطول أمام فراش محتضر ، تجس نبضه وهو يضعف ويغيض رويدا رويدا ؟ .. كانت يداى مغلولتين ، لم يكن فى وسعى غير أن أجلس وأرقبها تموت ! .. ولست أفهم كيف يبقى الانسان حيا بعد تجربة كهذه ، لماذا لا يموت مع الميت ؟ وكيف يستطيع أن ينهض فى الصباح التالى فيغسل أسنانه ويعقد رباط رقبته ، ويواصل نظام حياته المألوف ، كأن شيئا لم يحدث !

« وضاعف من عذابى وأنا أشهد الحياة تضمحل من بدنها ببطء ، احساسى بنظرة ثابتة تكاد تثقب ظهرى ! كان الغلام الصينى قد جلس ورائى القرفصاء ، يغمغم مصليا بلغته الخاصة ، ويرمقنى كل حين بنظرة ملتاعة متوسلة ، ككلب أمين يلتمس غوثا ، ثم يرفع يديه الى — كما يبتهل الى آله — أنا المخلوق الضعيف العاجز الذى كنت أعلم عقم المحاولة ، بل أعلم أن وجودى فى الحجرة لم يكن فيه نفع للمريضة أكثر من أية حشرة ضئيلة تسعى على الأرض !

« وقرب مطلع الفجر استردت المحتضرة وعيها ، أفاقت من تأثير حقنة المورفين التى أعطيتها لها كى تخفف من آلامها .. وعندئذ فتحت عينيها اللتين لم تعودا مترفعتين ، باردتين ، وانما تأجج فيهما لهيب الحمى — وأجالت بصرها فى أرجاء الغرفة ، فلما وقع على تريث برهة حائرا ، منكرا .. ثم عرفتنى آخر الأمر ، فحاولت أن تتكلم ، لكن تنفسها الشاق لم يسعفها .. فانحنيت أنا عليها كى أسمع أخفت همسها ، واذ ذاك نظرت الى نظرة تفطر القلب ، واختلجت شفتاها : « لن يعرف الحقيقة أحد ؟ .. أبدا ؟ » .. فأجبتها مطمئنا : « لا أحد .. أعدك بذلك ! »

« لكن نظرتها ظلت قلقة .. وبمجهود عنيف استطاعت أن

تتنفس هـذه الكلمات : « اقسم لى .. ان .. أحـدا .. لن يعرف .. اقسم لى ! » .. فرفعت يدى وأقسمت .. وعندئذ نظرت الى ، رغم ضعفها ، نظرة شكر وامتنان .. نعم ، برغم كل الضرر الذى أصابها منى فانها شكرتنى أخيرا ، وابتسمت !.. وبعد لحظات بدأ صراع النزع الرهيب ، وحشرجته المروعة .. واستمرا ساعة كاملة .. وقبل أن يشرق النهار ، كان كل شىء قد انتهى !

●

وصمت محدثى ، واستند الى الوراء منهوك القوى .. ولم تلبث أن دقت الساعة الثالثة . كانت النجوم قد شحبت ، وهبت نسمات منعشة رقيقة ، تبشر بالفجر الذى يشرق مبكرا فى المناطق الاستوائية .. فبدأت أتبين طلعة محدثى بوضوح ، وقد ارتسم عليها البؤس والتعاسة .. وما عتم أن استطرد ، بلهجة تنضح بالمرارة :

« انتهى كل شىء بالنسبة لها هى ، وليس لى !.. فقد كنت وحيدا مع الجثة ، فى بيت غريب ، فى بلدة تنتشر فيها الشائعات بسرعة النار فى الهشيم !.. وأخذت أتدبر موقفى : لقد أقسمت للفقيدة أن أصون سرها ، وقد كانت امرأة ذات مركز مرموق فى مجتمعات المستعمرة ، ومنذ ليلتين فقط كانت ترقص فى سهرة الحاكم العام ، وهى فى أتم صحة !.. فكيف أعلل موتها المفاجىء ، والى أى مرض أعزوه ؟ وكيف أواجه سـيل الأسئلة الذى ستواجهنى به السلطات المسؤولة ، والأصدقاء ، والزوج !

« وبدأت فأوصيت الغلام الصينى بالكتمان التام ، تحقيقا لرغبة سيدته الأخيرة ، ثم جعلته يزيل بقع الدم من أرض الغرفة ومحتوياتها .. وزعمت بعد ذلك أن المرأة قد أصيبت بحمى من تلك الحميات المفاجئة المستوطنة !.. ولكن بقيت أمامى المهمة الكبرى المستعصية : أن أقنع بمزاعمى هـذه طبيب الصحة

المختص بتحرير شهادة الوفاة والترخيص بالدفن ، بعد الكشف على الجثة !

« وكان الطبيب المذكور بحكم منصبه رئيسى ، وكان يحقد على بسبب السمعة الطيبة التى ذاعت عنى فى المنطقة فجعلت منى ، دون قصد ، منافسا خطيرا له !.. فلما التقينا عند فراش الراحلة وضيق على بأسئلته الخناق ، اضطررت للاعتراف له بالسبب الحقيقى لوفاتها ، وطالبته بمعاونتى على الوفاء بوعدى المقدس لها بصيانة سرها .. لكنه أبى واستكبر أن يضع توقيعه على شهادة زائفة ! وهنا لم أجد بدا من تهديده باطلاق الرصاص عليه فى التو واللحظة اذا لم يستجب لطلبى ، واعدا اياه فى مقابل ذلك بالرحيل من البـلاد نهائيا على أول باخرة ، واراحته من منافستى مدى الحياة !

« وحين اطمأن الوغد الى هذا الوعد كتب الشهادة المطلوبة ، بل وتعهد باغلاق النعش وختمه فورا ، قبل وصول الزوج الغائب !.. ثم شد على يدى محييا وانصرف .. وبانصرافه خذلتنى البقية الباقية من قواى فسبحت الغرفة أمام عينى وسقطت بجوار فراش الميتة مغشيا على ..!

« وبعد فترة لا أدرى مداها تنبهت من اغمائى على صوت الغلام الصينى يدنو منى مغمغما أن شخصا جاء ليرى سيدته .. فلما نهيته عن ادخاله بدا عليه التردد والحياء ، شأن من يريد الكلام ولا يجرؤ ! كان المسكين يتعذب .. فصحت به : « من يكون ؟ » .. واذ ذاك ارتجف ككلب لوح له سيده بهراوة ، واكتفى بأن قال فى وجل : « انه هو ! »

« وأدركت من يعنى .. فتملكنى فضول شديد الى رؤية الفارس المجهول الذى كانت الأحداث السابقة قد أنستنى

وجوده تماما .. الرجل الذى أحبته هذه المرأة ومنحته من نفسها ما ضنت به على !.. ولو كنت رأيته فى اليوم السابق فقط لوددت أن أمزقه وأنهش لحمه ، أما الآن فقد شعرت أنى أحببته .. لأنها أحبته !

« ودلفت الى الحجرة المجاورة ، فرأيت فى وسطها شابا حدثا ، نحيل الجسم ، شاحب الوجه ، يرتدى زى الضباط ويبدو عليه الحياء والارتباك .. كان أشبه بطفل ، وان حاول جهده أن يظهر بمظهر الرجل ! ورأيت هيئته تطابق الصورة المثالية التى تمنيت أن يكون عليها عشيق تلك المرأة ، صورة الفتى الرقيق المراهق ، لا النذل الواثق من نفسه ، المحترف اغواء النساء ..!

« وكأنما زادت من ارتباك الفتى نظرتى الفاحصة ، فاختلج وجهه كمن يوشك أن ينفجر باكيا ، ثم تمالك نفسه فقال : « لست أريد أن أقحم نفسى ، ولكن بودى لو أستطيع رؤية (مدام بلانك) .. مرة أخيرة ! »

« ودون أن أدرى ما أنا فاعل أحطت كتفيه بذراعى وقدته الى مخدع الراحلة ، حيث تركته أمام فراشها وانسحبت الى أقصى الغرفة .. وعلى حين غرة تهاوى الشاب على ركبتيه وانخرط فى البكاء المر ! وحين هدأ انفعاله أنهضته على قدميه وأجلسته على كنبة مجاورة ، وجلست بجانبه أربت على شعره الأشقر الناعم ، فأخذ يدى فى يده وضغطها بتأثر ثم قال :

ــ صارحنى بالحقيقة يا دكتور .. ألم تقتل نفسها ؟

ــ كلا ..

ــ وهل يوجد شخص يلام على موتها ؟

ــ كلا ..

« قلتها وأنا أقمع هاتفا داخليا يصرخ فى أعماقى : « نعم .. أنا !.. أنا ، وأنت .. كلانا ملوم ، وثالثنا كبرياؤها التعس !» .. لكنى قمعت هذه الصرخة وعدت أكرر على مسمعه : « كلا ، لا أحد يلام على موتها .. وانما هو قدرها المحتوم ! » ..

فاستطرد حائرا : « انى .. عاجز عن ادراك الأمر . انه يبدو لى عسير التصديق .. فمنذ ليلتين فقط كانت فى الحفلة الساهرة ، وأومأت لى وابتسمت .. فكيف حدث ذلك ، كيف تموت بهذه السرعة .. والسهولة ؟

« وسردت عليه سلسلة من الأكاذيب !.. حتى عن عشيقها كان ينبغى أن أصون سرها !.. وهكذا لم يعلم الغرير أنها حملت منه ، وماتت ضحية محاولتها التخلص من ثمرة حبهما !.. وقضينا ذلك اليوم واليومين التاليين فى أحاديث « أخوية » ، وقد شعرنا كأن ذكرى الميتة تربط بيننا بأوثق رباط .. وفى هذه الأثناء وصل الزوج الغائب ، بعد أن أغلق النعش وختم ، فثارت شكوكه .. وانتشرت الشائعات فى البلدة كلها ، فراح التعس يبحث عنى فى كل مكان ، كى يسمع منى تقريرا مباشرا مفصلا عما حدث !.. لكنى تجنبت لقاءه ، اختبأت أربعة أيام بلياليها فى منزل العشيق المكلوم ، وخلالها حصل الفتى لى على جواز سفر باسم مستعار ، فتسللت تحت جنح الظلام — كاللص ! — الى السفينة الصغيرة المبحرة الى سنغافورة ، تاركا ورائى كل ممتلكاتى ، وثمرة عملى وأبحاثى طيلة سبع سنوات ، بل وحقى فى المكافأة المدخرة لى .. فانى لم أطق أن أواصل العيش فى ذلك البيت ، فى تلك البلدة ، فى ذلك العالم الذى يذكرنى كل ما فيه بها ، وبنذالتى معها ..!

« لكن محاولتى كانت عقيمة .. فعلى أثر ركوبى السفينة

رأيت صندوقا ضخما يرفع الى ظهرها : كان نعشها ! نعشها الذى فررت منه قد تبعنى ، وجاء يطاردنى ! ومعه زوجها .. انه فى طريقه الى انجلترا ، حيث وطنها وأهلها ، ولعله ينوى أن يعيد فتحه هناك للكشف على الجثة وتحقيق أسباب الوفاة !.. وفى سنغافورة انتقلت الى هذه الباخرة ، وانتقل معى النعش ، والزوج !.. لكنى ما زلت أسهر على حراستها ، وسأحرسها الى النهاية .. انه لن يعرف سرها ! سوف أدافع عنها الى آخر نسمة ضد الرجل الذى لقيت حتفها هربا منه !.. انه لن يعرف شيئا على الاطلاق ، فان سرها يخصنى وحدى ، ولا يخص أحدا فى الوجود سواى !.. أتفهم ؟ أتفهم لماذا أنفر من بقية المسافرين ولا أطيق سماعهم يضحكون ويثرثرون ويرقصون ويتبادلون غزلهم الأحمق ، فى الوقت الذى يرقد فيه جسدها فى قاع السفينة بين صناديق الشاى والبندق البرازيلى ؟ انى أعرف ما تنتظره منى . لقد بقى أمامى شىء أفعله أيضا من أجلها ، فان سرها لم يصبح بعد آمنا .. وحتى يصبح كذلك سيظل وفائى بقسمى لها ناقصا ! »

●

وانبعث من وسط السفينة ضجيج خطوات واصوات البحارة وقد هبوا من رقادهم ليشرعوا فى تنظيف السطح وغسله .. فقفز محدثى واقفا وقد بدا عليه القلق ، وغمغم : « يجب ان انصرف الآن ! » .. ثم مضى عنى وهو يحدجنى من عينيه الحمراوين - بتأثير البكاء والشراب - بنظرة يختلط فيها اليأس ، والندم ، والخجل من نفسه لكونه فتح قلبه لى ، وكشف عورته ..!

ولم اره مرة اخرى ، رغم بحثى عنه فى كل مكان من السفينة !.. اختفى تماما كأن البحر قد ابتلعه .. بحيث كنت لأتهم نفسى بانى لم اره الا فى وهمى وهذيانى ، لو لم اصادف بين الركاب رجلا يضع على ذراعه شارة الحداد ، قيل لى انه هولندى ماتت زوجته حديثا بالحمى !.. وكان منزويا منطويا على نفسه ، يجتر حزنه العميق فى صمت ، فكنت كلما التقيت به أشيح بوجهى عنه خشية ان يقرا فيه انى اعرف عن مأساته اكثر مما يعرف هو !

وفى ميناء نابولى وقع الحادث الذى أشرت اليه فى البداية ، والذى لم أكن لاهتدى الى تفسيره الا على ضوء قصة ذلك الغريب !.. كان أكثر الركاب قد نزلوا الى البر كما ذكرت ليطوفوا بمعالم المدينة .. وكنت قد قضيت أمسيتى فى الأوبرا ثم تعشيت فى أحد مقاهى حى « فيا روما » الزاهرة .. وأثناء عودتى فى الزورق الشراعى الى السفينة رأيت حركة غير عادية تجرى حولها : قوارب تروح وتجىء برجال يحملون مشاعل وبطاريات يفحصون الماء على ضوئها .. وبحارة على السطح يتهامسون فى خفوت !.. وحين وصلت سألت أحدهم عما هنالك ، لكنه راغ منى فى الاجابة ، شأن من أوصى بالكتمان التـام !.. وفى الصباح التـالى ، ونحن فى عرض البحر ، اصطدمت بنفس التحفظ .. حتى بلغنا « جنوا » فقرأت فى احدى صحفها وصفا لما حدث فى الليلة السالفة فى ميناء نابولى : قالت الجريدة ان نعشا يضم جثمان سيدة رفيعة المقام من سكان جزر الهند الهولندية كان يدلى من السفينة الى القارب الذى أعد لحمله الى الشاطىء ـ تمهيدا لنقله برا الى انجلترا ـ وبينما النعش يتوسط المسافة بين ظهر السفينة والزورق ، وكان يجلس فيه زوج تلك السيدة ، فوجىء الجميع بسقوط جسم ثقيل من السطح جرف النعش معه الى قاع البحر ، بعد أن اصطدم بالزورق فاغرقه ! وكان من حسن الحظ أن من فيه أنقذوا فلم تقع خسائر فى الأرواح .. أما النعش فقد تعذر انتشاله ..!

ثم أضافت الجريدة : « ان سلطات السفينة فسرت الحادث بأن شخصا مخبولا ألقى بنفسه فى تلك اللحظة من فوق السطح فاصطدم بالنعش صدمة قطعت الحبل الذى كان يدلى بواسطته !.. ولكن لعل قصة ذلك الجسم الثقيل الذى قيل أنه سقط فوق النعش قد اخترعت لتغطية خطأ المسؤولين عن انزاله من السفينة بواسطة حبل ضعيف بال لم يحتمـل ثقله فانقطع وهوى به من حالق ! »

.. وفى مكان آخر من نفس الجريدة نشر خبر صغير مؤداه انه قد انتشلت من ميناء نابولى جثة رجل مجهول الشخصية فى نحو الخامسة والثلاثين !.. لكن أحدا لم يخطر بباله أن يربط بين النبأين !

أما أنا فلم أكد أطالع تلك السطور حتى قفز الى خيالى فجاة من بين ثناياها ذلك الوجه الشاحب التعس ذى العوينات البراقة ، الشبيه بوجه شبح !.. وجه محدثى الدكتور « ... » الذى سردت قصته فيما سبق ...

رياضة الذهن



غوامض القصص البوليسى !

عزيزى القارىء ...

يخطىء من يغض من قدر القصص البوليسية - أقصد الجيد منها - ويصفها بالتفاهة وضآلة النفع .. فمما لا شك فيه أنها تنمى فى الذهن ملكة الخيال وتزيده سعة فى الأفق .. ومما يؤثر عن الفيلسوف المعاصر « برتراند رسل » - الفائز بجائزة نوبل الأدبية فى العام المنصرم - انه رؤى يحمل تحت ابطه ثلاث روايات بوليسية قرأها فى ليلة واحدة !

وسوف أقدم اليك فى هذا الباب كل شهر قصة من أقوى ما كتب أساطين القصة البوليسية فى العالم ، وهم : أجاثا كريستى ، ادجار آلان بو ، أرثر كونان دويل ، ادجار والاس ، موريس لبلان ،فيليبس أوبنهايم ، وعشرات غيرهم من كتاب القصة البوليسية العالميين ..

وعن طريقهم سوف تستمتع بتتبع مغامرات أصدقائك المحبوبين : شرلوك هولمز ، أرسين لوبين ، هركول بوارو - بطل قصة هذا العدد - وأوجست دوبان .. الخ


The ADVENTURE of the CLAPHAM COOK
By
AGATHA CHRISTIE
لغز
المرأة المختفية
قصة بوليسية
للروائية أجاثا كريستى

اختفاء غامض !

فى الفترة التى كنت فيها أشارك فى المسكن صديقى « هركول بوارو » ـ رجل البوليس السرى البلجيكى المشهور ـ اعتدت أن أقرأ له كل صباح العناوين الرئيسية التى تملأ صدر الصحيفة المعروفة « ذى ديلى نويز » The Daily Noise التى كانت تحسن استغلال كل فرصة لاثارة فضول القراء وانفعالهم ، فلم تكن أنباء السرقات وجرائم القتل تختبىء فيها فى الصفحات الخلفية ، بل كانت تطالعك فى أبرز مكان من الصفحة الأولى ، وبأضخم الحروف !

وفى اليوم الذى تبدأ فيه حوادث هذه القصة كانت تملأ صدر الصحيفة العناوين المثيرة التالية :

« موظف فى بنك يفر بخمسين ألف جنيه ! »

« زوج ينتحر !.. مأساة حياة بيتية تعسة »

« اختفاء فتاة فى الحادية والعشرين ؟ .. أين هى ؟ »

لكن « بوارو » لم يبد أدنى اهتمام بهذه الجرائم ، بل اكتفى بأن هز رأسه فى هدوء وقال : « انى أشعر اليوم بتكاسل عجيب ، بحيث لن تغرينى بالتحرك من مقعدى الا قضية شائقة حقا ! »

وفى هذه الاثناء دق جرس الباب ، وكانت الطارقة سيدة ذات وجه أحمر وجسم يميل للبدانة ، وكانت تلهث من صعود السلم ، فغاصت فى أقرب مقعد وهى تسألنى : « هل أنت مسيو بوارو ؟ » ... فأجابها صديقى : « أنا هو يا سيدتى .. » وعندئذ حدجته بنظرة تنم عن خيبة الأمل ، وقالت : « انك لا تشبه فى شىء الصورة التى كانت فى ذهنى لك !.. ولكن دعنا من هذا ، ولأذكر لك ما أريده منك . أريدك أن تعثر على طاهيتى .. »

نظر بوارو الى المراة فى دهشة ، وقد خانه لسانه اللاذع لأول مرة ، بينما أشحت أنا بوجهى لأخفى الابتسامة العريضة التى لم أستطع قمعها .. فى حين واصلت الزائرة كلامها : « ان الذى يفسد الخادمات فى هذه الأيام تلك الآراء الحديثة .. فهن جميعا يردن أن يصرن كاتبات على الآلة الكاتبة ، أو يقمن بأى عمل عدا الخدمة فى البيوت !.. والا فما الذى تستطيع خادماتى الشكوى منه ؟ انى أمنحهن أجازة نصف يوم كل أسبوع ، علاوة على يومى أحد كاملين كل شهر ! وهن يتناولن نفس الطعام الذى نأكله نحن ، وهو طعام ممتاز لا ينقصه شىء ! »

ثم توقفت المراة لتلتقط أنفاسها ، فانتهز بوارو هذه الفرصة ليجيبها بلهجة الاباء والترفع وهو ينهض واقفا : « أخشى أن تكونى قد أخطأت الطريق ياسيدتى ، فليس من شأنى أن أحقق شكاوى الخدم وأخوض فى ظروف حياتهم ، وانما أنا رجل بوليس سرى خاص .. »

فقالت الزائرة متعجبة : « أعلم ذلك . ألم اذكر لك انى أريدك أن تبحث لى عن طاهيتى ؟ لقد خرجت من البيت يوم الأربعاء دون أن تترك أى ايضاح ، ولم تعد ثانية ! »

فأجابها بوارو فى اصرار : « أنا جد آسف ياسيدتى ، لكنى لا أشتغل بمثل هذه الأمور ... سعدت صباحا ! »

فأخرجت الزائرة من حنجرتها « زئيرا » غاضبا ، وصاحت : « حقا ، أيها الرجل الشهم ؟ أرى أنك شديد الاعتداد بنفسك ! انك لا تهتم بغير أسرار الحكومات وجواهر السيدات الارستقراطيات ؟ .. اذن دعنى أقول لك أن الطاهية البارعة بالنسبة لامرأة من طبقتى لا تقل أهمية عن حلية

من الماس ، فهى نادرة الوجود ، ونحن حين نفقدها نحس بمثل الخسارة التى تحسها بعض السيدات حين يفقدن جوهرة ثمينة!»

لم يسع بوارو الا أن يضحك ويجلس ، قائلا لزائرته الساذجة الطيبة : «سيدتى . . ان ملاحظتك عادلة فى الواقع ، ولسوف تكون هذه القضية شيئا جديدا بالنسبة لى ، ولعلها هى القضية الخطيرة الشائقة التى كنت أطلبها من الأقدار قبل قدومك بلحظات ! حسن جدا . . تقولين ان طاهيتك « الماسية » خرجت يوم الأربعاء ولم تعد ؟ تعنين ان ذلك حدث أول أمس ؟

— نعم ، وقد كان يوم أجازتها الأسبوعية .

— ولكن لعلها أصيبت فى حادث . . ؟

— هذا ما فكرت فيه أمس . لكنى فوجئت هذا الصباح بارسالها شخصا من طرفها لأخذ صندوق ثيابها . ولم تعبأ الخائنة حتى بأن ترسل الى معه كلمة ايضاح ! آه لو كنت وقتئذ فى البيت ، لما تركت الرجل يأخذ صندوقها ، بعد أن عاملتنى هذه المعاملة !

— هل لك أن تصفى الطاهية لى ؟

— كانت امرأة فى منتصف العمر ، بدينة الجسم ، وقورة تعمل فى خدمتى منذ عشر سنوات . . وهى تدعى « اليزا دن»

— أو لم يقع بينكما أى خلاف يوم ذهابها ؟

— بتاتا . . وهذا ما يدهشنى ويحيرنى !

— كم من الخدم فى بيتك ياسيدتى ؟

— اثنتان ، والأخرى « آنى » هى التى تنظف البيت . .

— وهل كانت العلاقة بينها وبين الطاهية على مايرام ؟

— نعم ، ولو أنهما كانتا تختلفان أحيانا خلافات تافهة .

— وهل لم تستطع الفتاة القاء أى ضوء على الحادث ؟

ـــ انها تزعم أنها لا تعرف شيئا يتصل باختفاء زميلتها ، لكنك أدرى بعقلية هؤلاء الخدم وتسترهم على بعضهم البعض !

ـــ لن نغفل هذا الاحتمال .. أين تقطنين ياسيدتى ؟

ـــ فى شارع « البرنس البرت » رقم ٨٨ ، « بحى كلافام »

ـــ أعدك اذن بزيارتك فى بيتك خلال هذا النهار ..

المرأة التى اختطفت !

وبعد خروج الزائرة « مسز تود » ببعض الوقت انطلقت مع بوارو الى شارع البرنس البرت .. فلما بلغنا المنزل رقم ٨٨ فتحت لنا الباب خادم نظيفة الهندام جميلة الوجه ، ثم استقبلتنا مسز تود مرحبة ، فانحنى لها بوارو فى أدب وطلب منها السماح باستجواب الخادمة « آنى » على انفراد ، فأدخلتنا ربة الدار الى حجرة استقبال صغيرة ثم انصرفت ، كارهة .. فبدأ بوارو أسئلته للفتاة ، وكانت بادية الفزع :

ـ والآن يا آنسة آنى ، دعينى أنبهك الى أن كل ما ستذكرين لى سوف يكون على أعظم جانب من الأهمية ، فانت وحدك التى تستطيعين القاء الضوء على هذه القضية الغامضة ، وبغير مساعدتك لن أستطيع أن أفعل شيئا !

واذ ذاك اختفى فورا من محيا الفتاة طابع الخوف ، وأجابت :

ـــ حسنا ياسيدى ، سأذكر لك كل ما أعرف .

ـــ عظيم !.. والآن ماهو تفسيرك الشخصى لاختفاء « اليزا » ؟ يبدو لى أنك فتاة ذكية ، فما رأيك الخاص فى المسألة ؟

ـــ أعتقد ياسيدى انها لابد قد اختطفت كما يحدث فى أمريكا ، وأن خاطفيها سوف يحتفظون بها حتى تدفع الفدية المطلوبة منها .. أنا واثقة من ذلك !



قمع بوارو ابتسامته جاهدا ، ثم سأل الفتاة :

ــ لاشك أنها فكرة معقولة .. ولكن لو انها قد اختطفت ، أكانت ترسل فى طلب صندوق ثيابها ؟

ــ لا أدرى ، لكنها لن تستغنى طبعا عن ثيابها أينما كانت !

ــ ومن الذى جاء يطلب الصندوق .. أكان رجلا ؟

ــ نعم ياسيدى ، من شركة « كارتر باترسون » للنقل .

ــ وهل أنت التى وضعت الثياب فى الصندوق وحزمته ؟

ــ بل لقد وجدته معدا ، ومحزوما بحبل ..

ــ معنى هذا أنها ذهبت وهى تنوى أن لاتعود ؟

ــ هذا صحيح ياسيدى . لقد فاتنى ذلك !

ــ وهل صرحت لك اليزا قبل رحيلها بأية عبارة يفهم منها عدم رضاها عن عملها فى هذا البيت ؟ هل كنتما سعيدتين هنا ؟

ــ انها لم تشر قط الى فكرة ترك البيت ، فالعمل هنا لابأس به والطعام جيد وكثير . ونحن ننال اجازة اسبوعية ، هى يوم الأربعاء وأنا يوم الخميس .. ثم لو أن اليزا أرادت ترك الخدمة بمحض رغبتها لأخطرت على الأقل سيدتى بذلك قبل رحيلها بشهر ، كى لاتفقد أجر الشهر الأخير الذى يحق لسيدتى الآن خصمه منها ..!

ــ وهل عملك أنت هنا يرهقك ؟

ــ كلا ياسيدى ، رغم انى أخدم أيضا الساكن الآخر

الغريب الذى يدفع لسيدتى أجرا . لكنه لا يتناول غداءه هنا بل فى عمله ، مثل سيدى ..

والقى بوارو على الفتاة عددا آخر من الأسئلة ثم أذن لها فى الانصراف .. واستدعى ربة البيت ليستفسر منها عن زوجها، فعلم أنه يعمل فى احدى الشركات فى وسط المدينة ولا يعود الى البيت عادة قبل الساعة السادسة مساء ! واستطرد بوارو:

ـــ لاشك أن زوجك الآن منزعج ومهموم لهذه المسألة ؟

ـــ انه لاينزعج لشىء ياسيدى ! كل ما عساه يقوله فى حالة كهذه : « لابأس ياعزيزتى ، يمكنك جلب طاهية أخرى . »

ـــ وهل فى المنزل سكان آخرون يا مسز تود ؟

ـــ يوجد مستر « سمبسون » ، الساكن بالأجر .. وهو لا يعبأ بغير تناول افطاره وعشائه فى الميعاد !

ـــ ماهى مهنته ياسيدتى ؟

ـــ انه يعمل فى بنك (...)

ـــ بودى أن أتحدث الى هـذا الرجل والى زوجك بضع دقائق اذا لم يمانعا ، وسأعود لهذا الغرض فى المساء ..

وودعتنا المرأة حتى الباب ، وحين دلفنا الى الطريق قلت لبوارو : « انه لأمر يلفت النظر أن ذلك الموظف المدعو «ديفيز» الذى اختلس خمسين الف جنيه وفر بهـا ، يعمل فى نفس البنك الذى يعمل فيه سمبسون هذا .. ترى هل يمكن أن تكون بينهما أية صلة ؟ »

فابتسم بوارو وأجاب : « من العسير تصور أية صلة بين حادث الموظف المختلس وحادث الطاهية المختفية ، اللهم الا اذا افترضنا أن ديفيز هذا قد زار زميله سمبسون فى بيت مسز تود ، فوقع فى غرام الطاهية وأغراها بالفرار معه ..!

اعداد الفخ

وفى المساء عدنا الى منزل حى « كلافام » حيث قابلنا كلا من تود وسمبسون . وكان الأول رجلا هادئا فى نحو الأربعين لم يكد بوارو يسأله عن رأيه حتى قال : « أوه ، ان الخدم جميعا يفعلون ذلك ، وقد قلت لزوجتى مرارا : ابحثى عن طاهية أخرى ، فلا جدوى من البكاء على اللبن المسكوب ! » .. أما « سمبسون » ، وكان شابا هادئا بدوره ، يضع عوينات على عينيه ، فقد وجدناه عاجزا هو الآخر عن تفسير لغز اختفاء الطاهية ، قائلا انه لم يرها منذ سكن المنزل غير مرات ، بعكس الخادمة الأخرى «الظريفة» التى تقدم له طعامه كل يوم ..

وهكذا لم نخرج من استجواب الرجلين بمعلومات ذات بال .. وفى الصباح فوجئنا بخطاب من مسز تود تخطر فيه بوارو بأنها لم تعد بحاجة الى خدماته ، بعد اذ تبينت سخف اللجوء الى البوليس السرى من أجل مسألة بيتية خالصة كهذه . ثم طوت المرأة خطابها على جنيه واحد « أجر المسيو بوارو مقابل استشارته » !.. فلم يكد بوارو يقرأ الخطاب حتى غضب وثار ، ورجح أن يكون مستر تود هو الموحى لزوجته بهذا الاجراء !.. ثم أقسم أن لا يدع القضية قبل أن يهتدى الى حلها ، ولو أنفق عليها من جيبه الخاص مئات الجنيهات !.. وحين هدأت ثائرته أملى على الاعلان التالى ، طالبا نشره فى جميع الصحف لمدة أسبوع ، وهذا نصه : «المرجو من « اليزا دن » أن تتصل بعنوان(...) كى تسمع نبأ يسرها»

ثم خرج بوارو من البيت على الأثر ، وحين عاد فى المساء قال لى : « لقد تحريت فى مقر عمل تود ، فعلمت أنه لم يتغيب يوم الأربعاء ، وأنه شخص مستقيم الخلق طيب السمعة ..

ثم تحريت عن سمبسون فعلمت أنه كان مريضا يوم الخميس فلم يذهب الى البنك ، لكنه كان فيه يوم الأربعاء .. وقيل لى أنه كان على صلات عادية طيبة مع زميله المدعو ديفيز ،السارق الهارب .. وفيما عدا ذلك لم تفض أبحاثى الى جديد !

وانقضت ثلاثة أيام .. وفى اليوم الرابع دق جرس الباب، واذا الطاهية المختفية « اليزا دن » واقفة أمامنا بلحمها ودمها !.. وابتدرتنا قائلة : « لقد جئت استجابة لاعلانكم ، وان كنت أرجح أن هناك ولا بد خطأ فى الأمر ، ولعلكم لم تعلموا انى تسلمت وصيتى فعلا . » فقال لها بوارو : « حقيقة الأمر أن سيدتك جد قلقة عليك ، حتى لقد خشيت أن تكونى أصبت فى حادث ! » .. فبدت الدهشة الصادقة على وجه المرأة وتساءلت : « ماذا ؟.. أو لم تتسلم خطابى اذن ؟ » .. فأجابها بوارو : « انها لم تتلق منك أدنى ايضاح !.. يحسن أن تصارحينى بالقصة كلها ، هيا ولا ترددى ..» ولكنها لم تكن فى حاجة الى من يستحثها ، فقد انطلقت على الفور :



« كنت عائدة الى بيت سيدتى مساء الأربعاء ، بعد انتهاء أجازتى الأسبوعية ، حين تصدى لى على بعد خطوات من المنزل رجل طويل القامة ذو لحية صغيرة وقبعة عريضة ، قائلا انه قد سأل عنى فى بيت مخدومتى فقيل له انه قد يلقانى

عائدة على بعد خطوات ، نظرا لأن موعد عودتى قد حان .. وأضاف الرجل أنه قد قدم من استراليا خصيصا كى يلقانى ويسلمنى ارثا آل الى من صديقة ثرية لجدتى التى تعيش هناك ، بعد اذ ماتت الصديقة دون أن تنجب نسلا . وينطوى نصيبى من الارث على منزل صغير هنا فى انجلترا ، وايراد سنوى قدره ثلاثمائة جنيه !..

« وحين لحظ الرجل دهشتى وارتيابى أبرز لى خطابا يحمل اسمى « هيرست وكرتشيت » المحاميين باستراليا ، ثم بطاقته الخاصة الدالة على أنه هو ثانيهما .. واستطرد يحدثنى : « .. على أن الموصية — وكانت امرأة غريبة الأطوار — اشترطت أن تتسلمى المنزل المتروك لك ، ويقع فى بلدة كارليل ، قبل ظهر غد ، والا حرمت منه نهائيا .. كما اشترطت أن تتركى الخدمة فى البيوت . ولكى يتحقق الشرط الأول يتعين عليك أن تستقلى قطار الليلة الذى يقوم من محطة « كنجز كروس » بعد نحو ساعة ! وسأقرضك عشرة جنيهات لتنفقى منها مؤقتا ، وفى وسعك أن تكتبى الى مخدومتك من المحطة رسالة تخطرينها فيها بتركك الخدمة ، وسوف أتكفل أنا بتسليمها اليها بنفسى وأشرح لها الأمر كله .. »

« ووافقت طبعا .. وبعد ساعة كان القطار يتحرك بى الى كارليل وأنا فى شبه نوبة من الذهول . وحين وصلت الى البلدة فى الصباح هرعت الى العنوان الذى أعطانى اياه ، وقد ازداد اشفاقى من أن يكون الأمر خدعة سخيفة .. لكنى وجدت المنزل الصغير الذى حدثنى الرجل عنه معدا لاستقبالى ، ووجدت فى انتظارى محاميا سلمنى مبلغ مائة وخمسين جنيها قيمة ايرادى لمدة ستة أشهر ، ولم يكن يعرف عن الأمر أكثر

من ذلك .. ولم يلبث مستر كروتشيت أن أرسل الى متاعى وحوائجى التى كانت فى بيت مخدومتى ، لكنى لم أتلق من مسز تود نفسها أية رسالة . وأعتقد أنها لا بد قد غضبت لخروجى، فقد احتفظت بصندوق متاعى وأرسلت لى محتوياته من الثياب فى طرد ملفوف بالورق ! »

أصغى بوارو الى قصة الطاهية بكل انتباه ، فلما فرغت منها قال لها مغتبطا : « أشكرك يا آنسة ، واليك نفقات الرحلة التى جشمتك عناءها ... ولكن دعينى أهمس فى أذنك بنصيحة : لاتنسى فن الطهى ، فمن الخير للانسان دائما أن تكون له مهنة يرتزق منها اذا ساءت الأحوال !.. »

مفتاح اللغز !

ولم تكد المرأة تخرج حتى طلب بوارو استدعاء سيارة « تاكسى » على عجل ، وبعد أن أدلى لسائقها بعنوان منزل مسز تود التفت الى قائلا : « كل ما أخشاه أن نصل متأخرين فنجد طريدنا قد أفلت ! » فسألته حائرا : « ومن هو طريدنا ؟» وكم كانت دهشتى حين أجابنى : « انه الرجل الهادىء الطيب مستر سمبسون ! » فصحت دون وعى : « ماذا ؟ » .. فقال صديقى مداعبا : « أوه ، كفى تغابيا يا هيستنجز ، لاتزعم لى أن الأمور كلها لم تنكشف لك الآن » .. فقلت وأنا أحاول الاستنجاد بذكائى : « لقد فهمت أن الطاهية أبعدت عن بيت مخدومتها بتلك الحيلة البارعة ، ولكن لماذا ؟ لماذا يرغب سمبسون بالذات فى ابعادها ؟ »

فأجابنى بوارو باسما : « لأنه كان حريصا على أن يحصل على شىء فى حوزتها . كان يبغى الاستيلاء على صندوق ثيابها الصفيحي القديم ! »

حسبت بوارو يسخر منى ، لكنى قرأت فى عينيه أنه لايمزح ، فصحت به منكرا : « أو ما كان فى وسعه أن يشترى صندوقا جديدا مثله لو أراد ؟ » .. فأجابنى : « انه لم يرد صندوقا جديدا ، بل أراد صندوقا قديما ولكن فى حالة جيدة كى لايثير الارتياب ! » .. وهنا كان صبرى قد نفد ، فصحت بصديقى : « اصغ الى يا بوارو ، هذه ترهات لا تصدق .. أواثق أنت أنك لاتمزح ؟ »

فأجابنى جادا : « بل اصغ أنت الى يا هيستنجز . انك لست على شىء من ذكاء مستر سمبسون وقوة خياله ! والآن اليك ما حدث : فى مساء الاربعاء أبعد سمبسون الطاهية عن طريقه . لم يكن عسيرا عليه أن يطبع بطاقة وخطابا بأسماء خيالية ، ويتوسل باللحية التنكرية والقبعة واللهجة الاسترالية كى يضلل المرأة فلا تتعرف عليه !.. كما لم يتعذر عليه أن يضحى فى سبيل نجاح خطته بالمائة والخمسين جنيها وقيمة ايجار ذلك المنزل الصغير الذى « استأجره » للطاهية فى كارليل ، سيما وقد كان يدفىء جيبه مبلغ الخمسين الف جنيه الذى سرقه من البنك فى نفس اليوم ..!

— سرقه ؟.. ان السارق هو ديفيز !

— آه لو تركتنى أكمل قصتى يا هيستنجز !.. كان سمبسون ، وهو يسرق المبلغ يوم الأربعاء ، يعلم أن السرقة لن تكتشف قبل « مساء » الخميس ، فلم يذهب الى البنك فى « صباح » ذلك اليوم ، بل كمن فى انتظار خروج ديفيز من البنك ساعة الغداء كى يتحدث اليه ويستدرجه الى الذهاب معه الى غرفته . وكان ذلك المساء — الخميس — موعد أجازة الخادمة « آنى » الاسبوعية ، وكانت مسز تود قد خرجت لشراء بعض

الحاجيات ، وهكذا لم يوجد أحد فى البيت فى تلك الساعة . وقد رتب سمبسون أمره على أساس أن السرقة ستكتشف عصر ذلك اليوم ، فى الوقت الذى يختفى فيه ديفيز ، الى غير رجعة ، ومن هنا يجزم الجميع بأن ديفيز هو السارق ! أما سمبسون فيعود الى عمله صباح اليوم التالى ، الجمعة ، آمنا من كل شبهة ..!

— وديفيز ؟

فهز بوارو رأسه حسرة وأجاب : « ان الجريمة تبدو فى منتهى القسوة والاحكام .. فأنت تعلم أن الصعوبة الرئيسية التى تواجه القاتل هى التخلص من جثة ضحيته ، وقد دبر سمبسون أمر هذه المشكلة قبل أن يسرق المال وقبل أن يقتل ديفيز كى يلصق السرقة به ، نتيجة لاختفائه الغامض المفاجىء !.. والواقع انه قد لفت انتباهى ، من تفصيلات القصة ، قول الخادمة « آنى » ان الطاهية قد خرجت مساء الأربعاء دون أن تبدى ما يدل على أنها لا تنوى أن تعود ، ومع ذلك فان زميلتها قد وجدت صندوق متاعها — حين جاء الحمالون لأخذه — معدا ومربوطا بحبل ! وكان سمبسون هو الذى أعده وربطه مساء الخميس ، وهو الذى كلف شركة « كارتر باترسون » للنقل بأن ترسل مندوبا عنها يوم الجمعة لنقل الصندوق الى العنوان الذى أعطاها اياه .. وأية ريبة يمكن أن يثيرها ارسال الطاهية حمالا لأخذ متاعها ، بعد تركها الخدمة ؟

« أما المرحلة الباقية من الخطة فبسيطة : يذهب سمبسون مساء السبت ، فى زيه التنكرى الاسترالى ، الى العنوان الذى أعطاه لشركة النقل — وقد يكون قلم الأمانات بمحطة لندن

ذاتها ! — فيطالب بالصندوق ، ثم يشحنه لتوه بالسكة الحديد الى أية جهة ، على أن يبقى فيها حتى يطلبه المرسل اليه — وهو شخص وهمى لا وجود له طبعا ! — فاذا ما مرت الأيام ولم يذهب أحد لاستلام الصندوق ، وارتابت السلطات فى أمره ففتحته .. فكل ما سيعرف يومئذ عن مصدره أن شخصا ذا لحية ولهجة استرالية قد شحنه يوما من محطة لندن !.. وهكذا لن يستطيع أحد أن يربط بينه وبين سكان المنزل رقم ٨٨ بشارع البرنس البرت !.. ارأيت ؟ »

وكان استنتاج بوارو صحيحا ، فحين وصلنا الى منزل مسز تود قيل لنا أن سمبسون قد انتقل من المنزل منذ يومين ، ولم يترك عنوانه الجديد !.. لقد فر الماكر !

لكنه لم يكن لينجو من العقاب .. فقد عثر عليه — بفضل اللاسلكى — بين ركاب السفينة « اوليمبيا » ، وكان فى طريقه الى أمريكا !!

وبعد أيام أثار ارتياب السلطات المسؤولة فى محطة سكة حديد « جلاسجو » صندوق من الصفيح مودع باسم مستر « هنرى ونترجرين » ... فلما فتح عنوة وجدت به جثة « ديفيز » التعس ، وقد قطعت الى أجزاء !

أما الشيك « بجنيه واحد » الذى أرسلته مسز تود الى بوارو أتعابا له عن مجهوده فى البحث عن طاهيتها ، فانه لم يرسله قط الى البنك ليصرفه ، بل آثر أن يضعه فى اطار يعلقه على جدار حجرة مكتبه !


احرص على أناقتك ...!
واقصد إلينا ...
فقد وردت لنا تشكيلة ممتازة
من الأصواف الأنجليزية
الفاخرة بأسعار ..
لا تزهق ميزانيتك
!
احمد عيد
ريفى
١٨ شارع مظلوم باشا - بالقرب
من جريدة الاهرام ت ٤٢٧٣٧
س . ت ١٦٩٢٥

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ..

المجتمع السليم هو الذى يتالف من أفراد سليمى الأجسام والنفوس والعقول . واذا كانت صحة الأجسام سبيلها التربية الرياضية والطبية ، فان صحة العقول والنفوس سبيلها التربية « النفسية » .. وهذا الباب بمثابة « عيادة نفسية » تقدم لك أحدث الكتب التى تبسط لك فى أسلوب عملى شائق أفضل الطرق التى تكفل لك ولأولادك سلامة النفس من كل عقدة أو مركب نقص .. وتعينك على مواجهة الحياة ومتاعبها ومشكلاتها كما ينبغى أن تواجه ..

ولما كان الجنس هو القوة الرئيسية المعمرة فى الحياة ، والمؤثرة فى النفس ، فان فهمه واستخدامه على الصورة الصحيحة يعينان أكبر العون على تكوين بيوت أسعد ، ومواطنين أفضل ، ومجتمع يقوم على دعائم سليمة البنيان .

ولسوف تقرأ فى هذا الباب ، فى الأعداد التالية من كتابى : الزواج والأخلاق (لبرتراند رسل) ، كيف نجحوا فى الحياة (لديل كارنيجى) رقصة الحياة (لهافلوك اليس) ..

ثم سلسلة كتب : كيف تقهر الخوف والخجل .. والقلق .. وكيف تنمى شخصيتك .. الخ


How to Tell Children
ABOUT SEX
By
R. MACDONALD
LADELL
(M. B., Ch. B.)
مشكلة كل أب وأم...
كيف تصارح أولادك
وبناتك بالحقائق الجنسية
أصدق كتاب للعالم النفساني
ماكدونالد لاديل

هـدف الكتـاب

« أم » و « اب » كلمتان تثيران فى النفس طائفة من المشاعر الرقيقة ، وتعبران عن رابطة جميلة المعنى والدلالة .. وهل هناك امرأة ـ أيا كانت ضعة مكانتها الاجتماعية ـ لا تستمد من أمومتها نبلا وسموا ؟.. أو هناك رجل لا يحس بالزهو والفخر بمجرد علمه بأنه قد صار أبا ؟

فاذا كان الأمر كذلك ، فلماذا تتردد ـ أو تترددين ـ فى اطلاع أولادك وبناتك على معنى كون الانسان أبا ، أو أما ؟ لماذا تخفى الحقائق بالتغطية والتهرب والأكاذيب ؟ لماذا تزعم لطفلك مثلا ـ اذا سألك من أين جاء ـ أنك قد وجدته فى سلة متروكة تحت شجرة أو خميلة فى الحديقة ؟ أليس أدعى الى غرس احترام الذات فى طفلك أن يعلم مدى صلته اللصيقة بأمه منذ بداية خلقه ؟

وسوف يشرح لك هذا الكتاب ثلاث مشكلات رئيسية : لماذا ينفر الوالدين من مصارحة أبنائهم بالحقيقة .. ثم الضرر الذى يفضى اليه هذا النفور .. وأخيرا ، الطريقة المثلى لتعريف أطفالك بشتى الحقائق الجنسية .. وخير ما أنصح به الوالدين أن يعيدوا قراءة هذا البحث مرة كل عام أو كل ستة أشهر ، كى لا ينسوا أن يطبقوا التعليمات الواردة فيه على أولادهم فى الوقت المناسب ، مرحلة بمرحلة .

مشكلة كل أب وأم

● من المقطوع به والمفروغ منه ـــ فى كل مايخرج عن نطاق المسائل الجنسية ـــ أنه من الخطأ البين أن نخدع أطفالنا أو نكذب عليهم ، وانما ينبغى أن نشبع فضولهم ونجيبهم على أسئلتهم الكثيرة بكل ما فى وسعنا من صدق وصراحة ، فكلما عرف الطفل المزيد من الأشياء والمسميات بأسمائها الحقيقية ، نما عقله وشخصيته ، وشب سليم النفس من كل عقدة تنغص عيشه .. وكلنا نخبر أطفالنا بأن الدجاجة تضع البيض ، وأن



البيض حين يفقس تخرج منه الكتاكيت !.. ولكن لما كانت القطط مثلا لا تضع بيضا ، فاننا نخفى عن الطفل أن القطط تلد قططا صغيرة ، وانما نتركه يتصور أن هذه القطط الصغيرة تخلق هكذا ، من لاشيء ، وتأتى من مكان مجهول !.. أما فى صدد الأطفال فأكثرنا يزعم لابنه أو بنته أنه يعثر عليهم فى سلة تحت شجرة ، أو يأتى بهم الطبيب المولد فى حقيبته !!

لماذا ينفر الآباء من المصارحة ؟

● ولو سألت الأب أو الأم ، لماذا ينفران من مصارحة ابنائهما بالحقيقة ، لأجاباك بقولهما مثلا ان الصبى ما يزال صغيرا **وليس من المستحب أن يعرف هذه الأمور من الآن !..** ولو ألححت فى سؤال الأب لماذا لايستحب ذلك ، لأجابك : « انى أخجل من مصارحته ، ولا أدرى من أين أبدأ ! » ... **اذن فليس هناك سببا حقيقيا يبرر هذه الخطة ، وانما المسألة مسألة « شعور » لا أكثر ولا أقل !** . . لكن الأمر ليس كذلك فى الأمور الأخرى ، التى يوجد لتصرفنا فى كل منها سبب مقبول ، فنحن نحذر الطفل من لمس السكين لئلا يجرح ، أو من الاقتراب من البحر لئلا يغرق .. ولكن ما من أب يستطيع أن يبين الضرر الذى يصيب الطفل لو عرف الحقائق الجنسية !.. قد يقال : « ليس من الخير أن يفكر فى هذه الأمور فى سنه

هذه » لكن سؤال الطفل لوالديه عن هذه الأمور يدل على أنه يفكر فيها فعلا . بل ان صمته عن الاشارة اليها قد يكون دليلا على انشغال عقله بها ، كما سيجىء البيان .

فالحقيقة اذن أن الوالدين يشفقون من مصارحة أطفالهم، لا لأن المصارحة سوف تضر الطفل ، وانما لأنهم هم يخجلون من الكلام فى هذه الموضوعات ، من فرط ما نشأوا يشعرون أن المسائل الجنسية ينبغى كتمانها واخفاؤها عن النشء ! ومعنى هذا أن الرجال والنساء يخجلون فى الواقع من الأجسام التى أعطاهم اياها الخالق . يخجلون من المتعة المتبادلة التى أباحها الله لهم . يخجلون من النعمة التى حباهم بها حين أتاح لهم أن ينتجوا حياة جديدة ويخرجوا الى العالم كائنا بشريا جديدا !

الخجل من المسائل الجنسية فكرة وثنية !

● ورغم خطأ هذه التربية فان من الصعب مقاومتها ، لأنها متغلغلة فى نفسية الأجيال المتعاقبة منذ زمن بعيد . ويرجع منشأها الى العصور الوثنية ، حين كان البشر يلتمسون رضى آلهتهم الوثنية بالتنازل عن أقوى متع أجسامهم ، وهى المتعة الجنسية . ومن ذلك الوقت ارتبط الصوم عن الطعام وعن المتعة الجنسية بالمشاعر الدينية ، **فكان أسلافنا الوثنيون يصومون عن المتعتين فى بعض المواسم ، وينغمسون فيهما الى حد التخمة والفسق فى مواسم أخرى ، باسم الدين فى الحالين!**

.. وفى عصور المسيحية الأولى أخذ رجال الدين عن الوثنيين فكرة ربط الحرمان من المتع الجسدية بالدين ، فكانوا ينادون بأن العزوبة والعذرة والتبتل أفضل فى نظر الدين من الحياة الجنسية الطبيعية .. ومن ثم ترادفت كلمتا « الجنس »

« والخطيئة » حتى يومنا هذا ، وان اختلفت درجة فهم الناس للعفة بين عصر وعصر ...

ولا شك أن الجيل الحالى من الشباب وأسلافهم المباشرين قد سلكوا فى المسائل الجنسية مسلكا أقرب الى الصحة الجسمية والنفسية — من آبائهم وأجدادهم .. ورغم ذلك فان الكثيرين ما يزالون يرتدون الى أفكار النهى والردع والتحريم القديمة حين يواجهون أسئلة محرجة من أطفالهم فى هذا الشأن ، وذلك بسبب صعوبة تخلص الكبار من أثر البيئة التى نشأوا فيها والتعاليم التى انطبعت فى نفوسهم منذ الصغر .

ثلاث عقبات « عاطفية » !

● **والصعوبة الأولى** التى ينبغى على الآباء أن يواجهوها ويتغلبوا عليها هى حيرتهم فى تسمية الأعضاء الحساسة فى جسمى الرجل والمرأة تسمية سليمة يصح تلقينها للنشء بحيث تغنيهم عن الالتجاء الى الألفاظ السوقية المبتذلة التى يتهامسون بها سرا .. **والصعوبة الثانية** هى أن أعضاء الجسم التى تفرز فضلات الطعام والشراب وثيقة الصلة بالوظائف الجنسية بحيث أن الفاظ « القذارة » و « النجاسة » التى تطلق على الفضلات والمفرزات تلتبس فى أذهان الصغار بالمسائل الجنسية فيألفون اعتبارها بدورها قذرة دنسة ، فى حين ينبغى أن يعلم الآباء والأبناء أن لاشىء « قذر » فى الأمور الجنسية ما دامت قواعد النظافة الصحية متبعة مرعية .. أما **الصعوبة الثالثة** التى يواجهها الآباء فهى الخلط بين « البراءة » و « الجهل » ، فهم يشفقون على أطفالهم من السن التى يكبرون فيها فيواجهون مسؤوليات الحياة ومشاكل الجنس ، أى أنهم



يعتبرون الميول الجنسية من الحقائق الكريهة الحقيرة التى ينبغى أن يحموا صغارهم منها أطول مدة ممكنة !

الجهل والأكاذيب الضارة

● وهذه الفكرة خاطئة وضارة معا ، لأننا اذا لم نصارح أولادنا وبناتنا بالحقائق ، بالطريقة السليمة اللبقة التى سيأتى شرحها ، فانهم سوف يعرفونها حتما على صورة مشوهة من همسات الآخرين المختلسة وصفحات النشرات الممنوعة وبجميع الطرق غير السليمة ! **ويترتب على ذلك ازدياد انحرافهم ونظرهم الى كل الأمور المتصلة بالجنس باعتبارها شائنة مزرية ، وأضرار هذا الانحراف لاتحصى ، فهو يجعل المرء يخجل من أفكاره ومشاعره الطبيعية ، وبالتالى فانه يصبح فى حرب مع نفسه ! والصبية الذين ينشأون هذه النشأة يشبون مرضى النفوس بالخجل المقوت والانطواء والنفور من الاختلاط بالآخرين ، فضلا عن الأمراض العصبية و « النورستانيا » التى تصيبهم فى طور المراهقة فتجعلهم أفرادا عاجزين فى الحياة فاشلين فى المجتمع ..** وحتى الذين لا تظهر عليهم هذه الأعراض يصابون بأضرار أخرى « خفية » ، أهمها حرمانهم من التوافق الجنسى بعد الزواج ، نتيجة لشعور عقلهم الباطن بأنهم يرتكبون أمرا منكرا ! ولا يخفى أنه بدون التوافق الجنسى يستحيل أن تتحقق سعادة زوجية بالمعنى الصحيح ، مهما

اتفق الزوجان فى جميع النواحى الأخرى .. والواقع أن التربية الخاطئة والمعلومات الجنسية الناقصة مسؤولة عن أكثر مآسى الزيجات التعسة وحالات الطلاق أو الانفصال .

فضول الأطفال

● وقد يستغرب البعض أن تشغل هذه الأمور ذهن الأطفال أو الصبية ، لكن الواقع أن الطفل يفكر أول ما يفكر فى اللغز المحيط بكيفية مجيئه الى هذا العالم ، ومجىء اخوته الأصغر منه ، وذلك بدافع حاجته النفسية الى الشعور بالأمن أو الطمأنينة ، وهو شعور يقوى أو يضعف وفقا لمدى فهم الطفل للعالم الذى يجد نفسه فيه .. فاذا هو استيقظ مثلا ذات يوم فوجد طفلا جديدا قد ولد فى البيت فاستأثر بعناية والديه ، دون أن يكون الوالدان قد نبهاه تدريجيا الى قرب وقوع هذا الحادث أو أوضحا له الأمر بالطريقة اللبقة التى سيجىء بيانها ، **فان شعور الطفل بالأمان يتزعزع ويصاب بهزة عنيفة .. يقول له عقله الساذج أنه مادام هذا المنافس قد هبط فجأة من حيث لايعلم ، دون انذار أو مقدمات ، فان أية كارثة أخرى يمكن أن تحدث : قد تنطبق السماء على الأرض ، ويسقط السقف على من تحته .. وقد ، وقد .. الخ ..** وهنا يحس الطفل أو الصبى أن من الخير له أن يظل طفلا عن أن يكبر ليواجه هذا الكون المختل المضطرب الملىء بالمفاجآت ! ومن هنا ينبع تمسك بعض الصبية بمسلك وأفعال الأطفال الى سن متأخرة ، بل وارتدادهم أحيانا الى التصرفات الصبيانية بعد أن يصبحوا شبانا بل رجالا ..

اذن فما هى الطريقة السليمة لافهام الطفل كل ما ينبغى أن يفهمه بشأن كيفية مجىء اخوته الى هذا العالم — أو

مجيئه هو ، اذا لم يكن هناك مولود جديد يتخذ فرصة مناسبة لمصارحته بالحقائق ؟ لهذه المصارحة عدة مراحل ومناسبات ، أوضحها فيما يلى :

● **المصارحة المبكرة** : قد يقال : وما ضرورة العجلة فى هذه الأمور ؟ ولم لاننتظر حتى يتعلم الصبى أو الصبية هذه الحقائق فى المدارس ؟ والجواب أنه بفرض ادخال هذا البرنامج فى جميع المدارس دون استثناء ، فان العلم به فى هذه الحالة يجىء متأخرا ، بعد أن تكون بذور الاضطرابات العصبية والنفسية قد تأصلت فى النشء فعلا !.. **ذلك أن الخمس سنوات الأولى هى الحاسمة فى تكوين نفسية الطفل وتحديد نظرته الى العالم الذى يعيش فيه !..** ثم أن تأخير مصارحته بما يستطيع أن يهضمه الى ما بعد سن الثالثة أو الرابعة قد يعوق النمو الطبيعى لعقله ، اذ يضع حائلا بينه وبين اشباع فضوله الى معرفة كل ما يحيره من غوامض .

● **تهيئة الجو للمصارحة** : ان ما تقوله للطفل لا يقاس فى الأهمية الى جانب الطريقة التى تقوله بها ، فالأطفال شديدو الحساسية فى التأثر بلهجة من يخاطبهم ، لذلك ينبغى قبل أن تكلم الطفل فى أمر محرج كالمسائل الجنسية ، أن تتخذ مظهر المتحدث فى أمر عادى واقعى لاحرج فيه .. **أما اذا تلعثمت أو احمر وجهك فسوف يفهم الطفل فورا أن فضوله غير مستحب فينطبع فى ذهنه أن الكلام فى هذا الموضوع أمر منكر لا يليق** فى حين أن هدف التربية السليمة أن تجعله ينظر الى مسائل الجنس باعتبارها وظيفة عادية من وظائف طبيعته البشرية وحياته ، وبغير هذه النظرة لاتكون للطفل فى المستقبل حياة عاطفية وجنسية سليمة من كل انحراف !

● **المصارحة السلبية :** ينبغى أن يكون مسلكك أمام طفلك طبيعيا لا تكلف فيه فى كل ما يتعلق بالعرى وكشف أجزاء الجسم الحساسة فى المناسبات العادية ، أثناء تغيير الثياب أو العلاج الطبى أو قضاء الحاجة أو الاستحمام .. الخ . أما اذا خجلت — سواء كنت أبا أو أما ، وايا كانت سنك — من أن يراك طفلك عاريا فى الحمام مثلا أو حجرة النوم ، فانك بذلك تلقى فى روعه شعورا ضارا خاطئا .. والأمر نفسه ينطبق فيما يتعلق بالصلة بين الأخوة والأخوات .. **فالعرى يجب أن يتقبل فى الأوقات المناسبة باعتباره أمرا عاديا لايصدم الشعور بالمرة .. والا اصيب الطفل حين يكبر « بمرض » الحملقة واختلاس النظر الى سيقان النساء ، أو تسليط المنظار المكبر على مخادع الجيران من وراء النوافذ !.. الخ** . وكذلك الفتاة، اذا قمعت فضولها « الجنسى » فى طفولتها ، نشأت تخجل من الظهور عارية أمام بنات جنسها حتى لو كن من سنها ! .. والفتاة التى تشب وليست لديها فكرة عن جسم أبيها الرجل أو أخيها ، يتعذر عليها فيما بعد أن تؤدى دورها فى الحياة الزوجية كما ينبغى .

● **الألفاظ اللائقة للمصارحة :** وهنا نلاحظ أن الطفل يعلم منذحداثته أسماء أكثر أجزاءالجسم ، كاليد والساق والأصابع وغيرها .. فيما عدا أعضاء التناسل ، التى تحاط بسياج حديدى من السرية الكاملة ، ويخاطب الطفل فى صددهابعبارات التحذير والتنفير المألوفة : « لاتلمس هذا .. كفى شقاوة .. ياقذر .. الخ » لكن هذا كله خطأ فادح يجب تلافيه فورا . نعم ، يجب أن يلقن الطفل من البداية — ذكرا كان أو أنثى — الاسم اللغوى السليم لعضوه التناسلى ، كما يلقن أسماء سائر

أجزاء جسمه سواء بسواء .. وبغير ذلك لن ينشأ جيل سليم العقل والبدن !

أسئلة الأطفال الشائعة .. وأجوبتها

● يبدأ الطفل عادة فى السؤال عن كيفية مجيئه الى الدنيا فيما بين سن الثالثة والرابعة .. فاذا انقضت هذه الفترة دون أن يوجه الطفل الى والديه سؤالا صريحا فى هذا المعنى ، فلا بد أن يكون قد شعر من تصرفاتهما أنهما يفضلان أن لا يسأل ! وفى هذا الحالة **يجب عليهما خلق المناسبات التى تشجعه على أن يسأل ويجاب** ، فيرضى فضوله الى معرفة اللغز المستعصى عليه . ومتى تم له ذلك كف فورا من تلقاء نفسه عن الاهتمام بالموضوع .. حتى يواجهه لغز آخر فيستفسر عنه ، وهكذا . وفيما يلى نماذج من الأسئلة التى يوجهها الطفل عادة بين سن الثالثة وسن الثانية عشرة ، مصحوبة بالاجابات التى ينبغى أن يجيبه والداه بها :

س : « من أين » جئت أنا (أو جاء أخى أو أختى الصغرى) ؟

ج : الأطفال ينمون ويكبرون داخل أجسام امهاتهم .

وقد يكتفى الطفل مؤقتا بهذا الجواب ، لكنه لن يلبث أن يوجه — بعد أشهر أو أعوام — سؤالا آخر قد يكون :

س : « كيف » ولدت أنا (أو ولد أخى ..) ؟

ج : انك كنت فى البداية شيئا صغيرا للغاية ، ثم بقيت داخل جسم أمك تسعة أشهر ، فى مكان دافىء يقال له الرحم ، حتى كبرت الى الدرجة الكافية لأن تتحمل البرد فى الخارج فخرجت من جسمها ..

أما السؤال عن دور الأب فى تكوين الجنين فقد لا يجول بذهن الصبى أو الصبية قبل مرور أعوام أخرى ، لكنهما متى وجهاه

فينبغى أن يجابا عليه بنفس الصراحة :

س : كيف « تكونت » أنا فى البداية ؟

ج : كل شىء حى لابد أن يكون له أبوان : أحدهما نسميه الذكر أى الأب ، والآخر نسميه الأنثى أى الأم . ولكى يتكون أى صغير ، طفلا كان أو قطا أو فأرا ، لا بد أولا من أن يزرع الأب بذرته فى الأم ، فتندمج فى البذرة التى تكون بداخلها .. وتتكون من البذرتين بذرة واحدة تكبر حتى تصير مولودا !

لكن هذا الجواب لن يرضى فضول الصبى أو الصبية الا لفترة معينة ، يلح بعدها فى الاستفسار عن « التفصيلات » .. وهنا ينبغى أن يجاب على استفساراته بالجواب التالى ، دون خجل أو ابتسام ، وفى لهجة الجد التام :

« عندما يحب الانسان شخصا ، يميل الى أن يبقى قريبا منه بقدر الامكان ، ثم يتوق الى أن يقبله .. والولد حين يكبر ويحب فتاة كبيرة مثله يتزوجها ، وهذا يعنى أنهما يعيشان بعد ذلك فى بيت واحد وينامان معا فى فراش واحد .. وعندئذ يحدث من وقت لآخر أنهما ، بدافع حبهما القوى المتبادل ، يلتصقان أحدهما بالآخر ، فتنتقل بذرة الشاب الى الفتاة من الطريق المعد لذلك . والتصاق الزوجين على هذه الصورة لا يضر أو يؤلم بل يحس الاثنان منه بشعور لذيذ يدفعهما الى أن يكررا الأمر كثيرا لأن ذلك لا يقتضى أن يتكون لهما فى كل مرة طفل جديد » .

وينبغى أن يقال هذا الكلام للطفل دون أى انفعال أو ارتباك لأنه لا يبحث الا عن الحقائق فيجب أن تعطى الحقائق له دون أى تعليق .. وهناك سببان يوجبان على الآباء أن يصارحا أطفالهما « باللذة » التى تنجم عن الاتصال الجنسى : أولهما

أن ذلك يعطى الطفل هدفا يتطلع اليه ـ وسنوضح أهمية ذلك عند الكلام عن العادة السرية ـ والسبب الثانى أن الطفل القوى الملاحظة قد يكون فكرة عكسية خاطئة عن « آلام » الاتصال الجنسى ، من ملاحظة الديكة والدجاج والقطط والكلاب، التى تبدى أناثها من المقاومة للذكر ما قد يوحى بأنه يغتصبها عنفا وعدوانا ، الأمر الذى يغرس فى عقل الطفل الباطىء فكرة خاطئة عن الزواج تسبب له حين يجىء أوانه اضطرابات جنسية كثيرة . وهنا تجدر الاشارة الى خطأ النظرية القائلة بافهام الطفل حقائق الجنس عن طريق المواربة والتلميح الى عملية تلقيح النبات والأزهار بواسطة الهوام والحشرات ، أو عملية تناسل الديدان والحيوانات الصغرى المختلفة كالأرانب والضفادع الخ ..

أى الوالدين يصارح ؟

● وقد يسأل سائل : على من من الوالدين ، الأب أم الأم ، يقع عبء المصارحة ؟.. والجواب أنه يقع على الاثنين ، أى على أى طرف منهما يتوجه اليه الطفل بالسؤال : ويجب أن يكون الجواب فورا ما أمكن ، ودون اظهار أية دهشة أو مزاح . واذا وجه الطفل سؤاله المحرج على مسمع من بعض الزوار مثلا يستطيع الوالد الذى سئل أن يجيبه بمثل هذه العبارة : « انت على حق فى سؤالك ، وسأجيبك عليه فى فرصة اخرى لا أكون فيها مشغولا كما أنا الآن » . ثم ينتهز الوالد أول فرصة كى يذكر الطفل بسؤاله ويجيبه عليه .

العبث الجنسى والعادة السرية !!

● ينزعج الآباء عادة حين يكتشفون ممارسة أولادهم أ بناتهم لبعض ألوان العبث الجنسى ومنها ما يسمى بالعادة

السرية . والأمر يختلف هنا باختلاف سن الصبى الذى يمارسها : فأما قبل سن النضوج ، وخاصة بين الخامسة والسابعة ، فليطمئن الآباء بالا فان شيوع هذه العادة أمر مألوف يتعذر منعه ، وهو مناف لآداب السلوك لا للأخلاق .. **وليعلم الآباء أن الطفل الذى صورح من حداثته بكل ما استفسر عنه من الحقائق الجنسية هو الذى يتخلص من هذه العادة فى سن مبكرة ، أما الذى قمع والداه فضوله فى حينه فقد تلازمه العادة السيئة الى سن المراهقة وربما بعدها .** والعادة السرية قد تظهر عند الطفل فى أى سن ابتداء من شهره الثالث ! فهو حتى فى هذه السن الباكرة يجد لذة فى لمس عضوه التناسلى . ومن الخطأ محاربة هذه العادة بربط يدى الطفل مثلا ، لأن ذلك يزيده تعلقا بها ... وانما العلاج السليم هو ايجاد لعبة أو شىء آخر يشغل به الطفل يديه وتفكيره ، لأن هذه العادات تنتج فى بدايتها عن المضايقة والوحدة .

والطفل السليم النفس والجسم يقلع عن هذه العادات عند بلوغه سن السابعة ، حين يتحول اهتمامه من نفسه الى الأمور الخارجية ، ويظل كذلك حتى سن المراهقة حين يعود اهتمامه الى ذاته مرة أخرى ... فاذا ظهرت عنده هذه العادة مرة أخرى بعد المراهقة فعلى والديه ـ اذا لم يتجاهلاها تماما ـ الا يقمعاها بالعنف والشدة أو التوبيخ والتحذير وانما يتبعا فى شأنها علاجا وسطا : هو افهام ممارسها بأنها « عبث أطفال » لا يليق بمن فى سنه ، فهذه النغمة تصادف ارتياحا وقبولا من الغلام الطبيعى الذى يتوق الى أن يكبر ويصير رجلا ، وهى تغذى فيه احترامه لنفسه ... فاذا لم تقنعه هذه الحجة ففى وسع الأب أن يخاطبه بلهجة

أخرى فيقول له مثلا : « ان اللذة التى تحصل عليها الآن لا تعتبر شيئا يذكر بالقياس الى المباهج التى سوف تستمتع بها عندما تتزوج .. وحرام أن تفسد ذوقك بالاعتياد على هذه المتعة البديلة المسوخة !! »

أما التخويف بأن العادة تؤدى الى العجز الجنسى فهى أكذوبة ضارة تسبب أوخم العواقب ، فقد ينتج عنها عجز فعلى « نفسانى » ظهرت أعراضه فى مخادع الأزواج فى مئات من الحالات !.. كما ينبغى أن يحذر الآباء من أن يغرسوا فى نفسية أولادهم فكرة أن هذه العادة تضعف صحتهم أو عقلهم أو انها مجلبة للعار ، فان هذه الأفكار فى ذاتها تسبب لهم من الخوف والقلق والانقباض والشعور بالاثم ما يضر صحتهم ونفسيتهم اضعاف ضرر العادة ذاتها ، فضلا عن أنها لن تجعلهم يقلعون عنها ، وانما تشعرهم بمنتهى التعاسة لأنهم باتوا أسرى لها لا أمل فى نجاتهم من سلطانها !

الشذوذ الجنسى !!

● والشذوذ الجنسى ، مثل العادة السرية ، طوريكاد يكون طبيعيا يمر به كثيرون فى فترة باكرة من صباهم ثم يطلقونه ويتركونه خلف ظهورهم بعد أن يجتازوا سنا معينة . لكنه قد يلازم بعض الأشخاص بعد تلك السن نتيجة لمبالغة الوالدين فى الاهتمام بأمره وطريقتهم العاطفية الخاطئة فى معالجته بالشدة والقمع ... فى حين أنهم لو عالجوه بالمنطق والاقناع لأقلع عنه ممارسوه وانتقلوا الى طورهم الطبيعى التالى له . ولاشك أن من أسباب اطالة طور الشذوذ الجنسى عند البعض عزل البنين عن البنات فى المدارس الداخلية ، بحجة تجنب خطر العلاقات التى قد تنشأ بين الجنسين فى حالة الجمع بينهما ، وهو خطر

مبالغ فيه ويمكن اسقاطه من الحساب اذا استخدمت فى مقاومته أسلحة المصارحة والثقة المتبادلة والايحاء باحترام الذات .

بماذا تصارح الفتيات ؟

● والفتيات ، كالشبان ، فى حاجة الى مصارحتهن بالحقائق المجردة ، ويجب أن يحرص الوالدان على تبصير ابنتهما بأمور الجنس قبل أن يدركها الحيض لأول مرة فى سن المراهقة ، والا أتلف الخجل والوجل أعصابها .. **والواقع أن صحة المرأة وسعادتها فى مستقبلها يتوقفان الى حد كبير على النظرة التى عودها أهلها على أن تنظرها الى فترة الحيض الشهرية ، لا باعتبارها « لعنة » كريهة أو مرضا بغيضا ، بل ظاهرة طبيعية تعتز بها أنوثتها** .. بل أن النفور العقلى والنفسانى من هذه الظاهرة يجعل انتظامها يضطرب ويختل ، اذ يجعل الجسم فى صراع دائم بين محاولة الأعضاء الداخلية القيام بوظيفتها الطبيعية ، وبين مقاومة العقل الباطن لذلك !.. ومن ثم ينبغى على الوالدين مصارحة ابنتهما بالحقائق المتصلة بفترة الحيض قبل أن تدركها لأول مرة ــ أى فى سن الحادية عشرة على الأكثر ــ على الوجه الآتى : « تعلمين طبعا أن أجسام البنات تختلف عن أجسام البنين ، للأسباب التى شرحناها لك من قبل . **وسوف يحل يوم قريب تصبحين فيه امرأة ، وهذا شىء رائع مستحب لأنه يمكنك من انجاب الأطفال** ... ودور الرجل فى هذا الانجاب ، رغم ضرورته الحتمية ، ضئيل صغير . . أما الدور الرئيسى فهو الذى تضطلع به الأم ، التى تبنى الجنين داخل جسمها . وقد يظهر عليك فى خلال شهور قليلة ، الدليل على أن جسمك قد أعد عدته لانجاب الأطفال حين تبلغين السن المناسبة لذلك ــ فان جسمك من الداخل لا يعرف أنك

ما تزالين صبية تذهبين الى المدرسة ، وانما هو متعجل يبغى ممارسة وظيفته الطبيعية ـ وهنا ينبغى أن تعلمى أن جسمك تتكون فيه مئات من البويضات الدقيقة ، وبعد قليل سوف تخرج بويضة واحدة منها كل شهر ، من مصنع البويضات أو « المبيض » ، وتأخذ طريقها الى الرحم . وعندئذ يشرع الرحم فى اتخاذ عدته لاحتمال اندماج تلك البويضة فى بذرة الرجل تمهيدا لتكوين جنين .. والرحم يتأهب لذلك بافراز وسادة ظريفة ناعمة كى يستريح عليها الجنين . فاذا جاءت البويضة « منفردة » لفظها الرحم مع الوسادة عن طريق قناة الدم ، فخرجت من جسمك مع الدم .. وكل فتاة حين تكبر تفرز هذا الحيض الشهرى، وأنا أنبهك اليه من الآن كى لا تفزعى، فهو لن يؤلمك ، وحين يأتى الأوان سنخبرك بما تفعلين كى تنعمى خلاله بالراحة التامة » .

وليس ما يمنع من أن تعرف الصبية هذه المعلومات فى أية سن مبكرة اذا أظهرت فضولا واهتماما بذلك . كما ينبغى أن لا تقصر هذه المعلومات على الفتيات ، بل تقال للصبيان أيضا ، كى يجنبوا زميلاتهم الالعاب العنيفة أثناء الحيض ولا يحاسبوهن على سرعة انفعالهن .

أما بصدد الزواج فينبغى أن يعد الوالدان ذهن بنتهما بحيث تتطلع بآمالها الى الزواج « المبكر » ، والى انجاب طفلها الأول قبل سن الخامسة والعشرين ، وذلك لأسباب جسمية ونفسية واجتماعية لا محل لتفصيلها هنا .

مزيد من الحقائق الجنسية للمراهقين

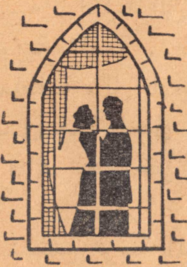
● والخلاصة أنه لا ينبغى أن يقلق أحد على مستقبل الشاب أو الفتاة اللذين يخرجان الى الحياة مسلحين بمعرفة الحقائق

الجنسية . وفى الوقت نفسه يجب أن لا ننسى أن نظامنا الاجتماعى ، بوضعه العقبات فى طريق الزواج المبكر ، يلقى على كاهل الشبان والفتيات عبئا ثقيلا اذ يتطلب منهم العفة الجنسية الكاملة سنوات طويلة تكون غريزتهم الجنسية خلالها فى عنفوان ضراوتها . ورغم أن العفة قبل الزواج مثل أعلى مستحب فى ذاته الا أنه يجب أن لايغيب عن البال احتمال فشل الشباب فى التزامه . ومن هنا كانت كل تربية جنسية لا ترشد الى اخطار الاصابة بعدوى الأمراض التناسلية ، تربية ناقصة .. على أن لايكون هذا الارشاد بلهجة التخويف العاطفية ، بل بلهجة لفت النظر الى الأمر الواقع . فان التخويف فى هذا المجال أضعف بكثير من مبادىء الأخلاق والمثل العليا ، التى هى خير حارس للعفة فى الواقع .

ولنفس السبب أرى صواب أن تتضمن تربية المراهقين بعض المعلومات عن طرق منع النسل ، مع مناشدة كبريائهم الذاتى أن لا يضعوا هذه المعلومات موضع التجربة الا حين يفسح الزواج السبيل ..

وأخيرا فان التربية الجنسية لا تنتهى فى سن المراهقة ، وانما يجب أن تعد فصول دراسية خاصة تزود كل من يفكر فى الزواج — من الجنسين — بالنصائح النفسية والجسمية التى تلزمه . بل الواقع أن التربية الجنسية على حقيقتها لا تبدأ الا بعد الزواج . ولهذا الموضوع بحث آخر ليس هذا مجاله ...

خلف النوافذ المغلقة



عباقرة الإنسانية

في حياتهم الخاصة

عزيزي القارىء ..

الحياة الخاصة هي التي تصنع العباقرة .. هي التي توحي للفنان بفنه ، للشاعر بشعره ، وللرسام برسمه ، وللموسيقى بلحنه ، وللأديب بأدبه .. وهي التي تلهب عزائم الرجال ، وتغرى بالبطولة الأبطال .. وكثيرا ما تكون زوجة العظيم ، أو صديقته ، أو عشيقته ،هي صاحبة الفضل عليه وعلى الانسانية في عظمته ، ولو استمد هذه العظمة من تعاسته !

ولو علمت أن مؤلف الكتاب الذى ألخصه لك في الصفحات التالية ، « ليون دوديه » ، الذى « يفضح » فيه نفسية فيكتور هوجو في حياته الخاصة ، عارية من كل زيف أو نفاق أو تكلف .. هو من أسرته وذوى قرباه ، لآمنت معى بأن الأدب الحق هو الذى يعتمد على الصدق ، والاخلاص في تصوير أدق خلجات النفس الانسانية وأخفى خفاياها ومشاعرها ..

وسوف تقرأ في هذا الباب في الأعداد التالية من « كتابى » طائفة من الكتب الخالدة التي تصور الحياة الخاصة لنفر من أعظم عباقرة الانسانية .. سواء بأقلام غيرهم أو بأقلامهم : ستقرأ فيه « اعترافات جان جاك روسو » .. و « اعترافات تولستوى » .. وغراميات الشاعرين الخالدين روبرت براونج واليزابث باريت .. وغرام « جورج صاند » و « شوبان » .. وحياة الرسام « تولوز لوترك » في الحى اللاتيني بباريس ... الخ .

La Vie Tragique
de
VICTOR HUGO
Par
LÉON DAUDET

ليون دوديه

مأساة قلب !

قصة غراميات وفواجع
ڤيكتور هوجو
في حياته الخاصة



الصديق الغادر

نحن فى باريس ذات صباح صحو جميل من شهر يوليو سنة ١٨٣١ ... الشمس المشرقة تملأ الجو دفئا وبهجة .. وقد جلس فيكتور هوجو فى غرفة المكتب بمسكنه الأنيق بشارع « جان جوجون » ينتظر دخول زوجته « أديل » التى استدعاهامنذ برهة ليتحدث اليها حديثا خاصا على انفراد..!

كان الأديب الشاب يدنو من عامه الثلاثين ، وقد أضاف نجاح مسرحيته « هرنانى » مزيدا من البهاء الى الهالة التى تحيط بوجهه الوسيم الذى ينضح شبابا وفتوة ، ويكاد يشبه وجه آله !..

وكانت زوجته الشابة ، التى تزوجها عن حب ، والتى أنجبت له طفلين وطفلتين ، امرأة فى قمة روائها ، ذات شعر قاتم ، وكتفين جميلتين ، وصدر فاخر ، وعينين تطل منهما نظرة جادة توحى بالعزم والصلابة .. وكانت كثيرا ما تسلم زمامها لنوبات عنيفة من الغضب .. أما ذكاؤها فقد كان فوق المتوسط ، ورغم ذلك فقد **كانت سريعة التأثر بكلمات الملق والمداهنة .. وبفضل هذا الميل عرف صديق الأسرة الناقد الشهير « سانت بوف » كيف يستميلها اليه .. فكان يطرى زوجها جهرا ، ويدللها هى سرا !**

وساءلت اديل نفسها بضمير قلق وهى متجهة الى غرفة زوجها : « ترى ماذا يريد منى ؟ .. هل يبغى أن يلقى على « محاضرة » جديدة من محاضراته ؟ »

● كان هوجو جميل الوجه ، فى انفة واعتزاز ، ذا عينين زرقاوين عميقتين ، وجبين عريض وضاء ، وشعر بنى متموج ، وقوام رائع ، ويدين رقيقتين ، وساقين طويلتين جميلتى



التكوين .. تشعل كيانه على الدوام نار الرغبة والشغف بأجساد النساء ، وأصواتهن ، وملقهن .. وكان ولوعا بالمفارقات الحادة فى مغازلاته ، يخص بها يوما أميرة من الأميرات ، وفى اليوم التالى سيدة من سيدات المجتمع الرفيع ، وفى الثالث خادمة وضيعة الشأن ! ..

وابتدرته اديل وهى تدخل « صومعته » التى اختارها كي يناجى فيها شياطين شعره بعيدا عن ضجيج الأولاد ولعبهم الصاخب : « هأنذا .. ماذا تريد منى ؟ »

— أريد أن أحدثك حديثا جديا ، اجلسى .. منذ شهور تغير مسلكك معى تغيرا ملحوظا .. أحسبك تفهمين ما أرمى اليه، ان نفورك منى ليس جثمانيا فقط ، بل هو نفور عقلى أيضا انك لم تعودى تسألينني عن عملى ، وتشجعينني وتمدينني بالمعونة كما كنت تفعلين وأنا أكتب « هرنانى » .. وبالاختصار فان شيئا أو « شخصا » ما قد بات يفصل بيننا منذ مولد طفلتنا الأخيرة « أديل الصغيرة » .. وهذه الشكوك تقتلنى ، فبربك صارحينى بما هنالك ! »

فأجابت مدام هوجو فى تأن ، بصوت جاف متراخ : « لم يعد يجدى كذبى عليك .. لقد تضاءل حبى لك ، أو بعبارة أخرى ان الشعور الذى بت أحسه نحوك هو شىء آخر مخالف لشعورى القديم ..! »

ـ وما سبب هذا التغير ؟

ــ انك لاتدرك مبلغ الغطرسة التى صرت تظهرها .. لم تعد تحتمل أدنى معارضة ، وباتت أبسط ملاحظة أبديها تثيرك وتدفعك الى تعنيفى وتوبيخى أمام الناس كما لو كنت صبية صغيرة .. **انى أعلم أننى قــد تزوجت من رجل عظيم ، أعلم هذه الحقيقة جيدا ، فلتكف عن تذكيرى بها بهذا الالحاح المهين ..!**

ــ أشكرك على صراحتك ، ولكن لماذا انتظرت الى اليوم كى تجابهينى بهذا الانذار الخطير ؟

ــ لأنك لم تسألنى ايضاحا من قبل ؟

ــ وهل تعتقدين أن هذا النفور مؤقت أم سيدوم ؟

ــ هذا أمر يتوقف عليك أنت يافيكتور ، أكثر منه على !

ــ أواثقة أنت من ذلك ؟

ـ لو لم أكن واثقة منه لما تركت باب مخدعى مفتوحا طيلة الوقت ، فى النهار والليل !

ـ بقيت مسألة أخرى .. ألا توافقيننى على أن نفورك يمتد الى أولادك أيضــا ؟ انك تهملين اليوم ليوبولدين ، وشارل ، وفرانسوا ، كما تهملينني بالضبط ، وتخصين « أديل » وحدها بكل حنانك والتفاتك ..!؟

ــ هذا لوم غريب ، ولاسيما من جانبك .. أنت الذى لم تعد تلم بالبيت فى غير ساعات العمل ، وصرت تتناول نصف وجباتك فى الخارج ، ولاتعود الى بيتك الا فى الساعة الثانية أو الثالثة صباحا .. انك تنفق من الوقت مع ممثلاتك أكثر مما تنفق معى !

ــ أؤكد لك اننى لست ألهو معهن .. وأنت تعلمين جيدا أن المسرح هو مصدر رزقنا ومعاشنا ..

ـ ان أنانيتك هى التى تثيرنى ، وهى التى تجعلك لا تبالى بغير نفسك ، ولا حتى بأسرتك .. انى ماكنت لافاتحك برأيى هذا لو لم تبدأ أنت بالشكوى من مسلكى ، الذى هوانعكاس لمسلكك!

● اضطرب هوجو ، فقد كانت حجج زوجته منطقية ومعقولة كحججه هو .. لكنه لم يقتنع بأنه المسئول عن هذه النتيجة .وقد كاد لسانه أن ينزلق فى هذا الصدد الى ذكر اسم صديقهما سانت بوف ، لكنه لم يجرؤ .. **لم يستطع أن يتصور للحظة واحدة أن هذا الصديق الصدوق يمكن أن يخونه .. أو أن زوجته « أديل » قد أمكنها أن تهب نفسها لمثل هذا الرجل الكريه ،الأصلع ، القبيح الخلقة** ..لكن كثرة تردد هذا الناقد على بيتهما قد أثار الأقاويل والشائعات ، حتى فى الوسط المسرحى حيث تنتشر رائحة الفضائح بسرعة عجيبة !

وبعد تبادل بضع عبارات أخرى انسحبت مدام هوجو من الغرفة ، تاركة زوجها غارقا فى تأملاته وشروده .. ان ظلا جديدا من القلق قد فرض نفسه على ذهنه ، نتيجة لعبارة زوجته الغريبة : « ان حبى لك قد تضاءل ، أو لعل الشعور الذى صرت أحسه نحوك هو شىء آخر غير الحب ! »

وغمغم الشاعر لنفسه بصوت مسموع : « ان هذه الهواجس لتكفى كى تودى بى الى الجنون ! » وأعادت الكلمة المخيفة الى وعيه ذكرى رهيبة ، ذكرى أخيه « يوجين هوجو » الذى اصيب بلوثة فى عقله ليلة زفافه هو الى « أديل » — رفيقة صباهما التى اشترك فى حبها الأخوان — الأمر الذى انتهى الى ادخال العاشق المنبوذ مصحة للأمراض العقلية !.. **وفجأة انتفض فى ذهن الشاعر خاطر مريب : من يدرى ؟ لعله قد كانت بين يوجين واديل — قبل زواجها — صلة خاصة أقوى مما**

كان فيكتور يعرف ٠٠ والا لما جن الشقيق المسكين لفقدها ؟

وخلال الأيام التالية دأب هوجو على مراقبة صديقه سانت بوف مراقبة أدق .. كان الناقد الكبير يزورهما كل مساء ، ليثرثر مع كليهما ، أو مع أديل وحدها اذا لم يجد فيكتور فى البيت .. وأحيانا كان يبقى للعشاء ، بحيث اعتادت الزوجة أن تعد له مكانا من مائدتهما دائما وبصورة آلية .. وكان الناقد يبدى اهتماما ملحوظا بالطفلة الأخيرة « اديل الصغيرة » ، ويطيل النظر الى محياها وهى نائمة فى مهدها الصغير ! وهى عاطفة تستغرب من رجل لم يشتهر يوما برقة احساسه !.. ومن ثم كانت الصغيرة مسؤولة عن الشكوك التى باتت تراود الآن ذهن هوجو المبلبل ونفسيته المرورة !

وذات مساء عاد هوجو الى بيته قبل موعده المألوف ففاجأ سانت بوف جالسا بجوار زوجته ويدها فى يده !٠٠ ولم يحرك الزائر ساكنا لدى دخول الزوج ، أما هذا فقد عبر عن دهشته بأن لاذ بالصمت ، حتى سحبت اديل يدها آخر الأمر !

لقاء الزوج والعشيق

● وتفاقمت شكوك هوجو ووساوسه ، وتزايد طلبه للخلوة مع زوجته كثرة والحاحا ، لكنها كانت تتذرع لرفض طلبه بمختلف الحجج والمعاذير ، وتزداد نفورا منه كل يوم!.. وبعد انقضاء عدة أسابيع على هذا المنوال اعتزم فيكتور أن يسأل صديقه الحميم ايضاحا للموقف ! .. وتم اللقاء فى مكتب سانت بوف .. وابتدر الضيف زائره متسائلا ، بلهجته المنطوية على الجبن والخبث :

— ماذا تبغى أيها الصديق ؟

— أبغى أن أتحدث اليك فى أمر يتصل بك وبامرأة وثيقة

الصلة بى ، ولست فى حاجة الى ذكر اسمها .. اريد أن أعرف ما اذا كانت ماتزال الصداقة وحدها التى تسيطر على صلتك بهذه المرأة ، أم أن عاطفة أخرى قد تسللت الى علاقتكما دون أن تحس بها .. وبعبارة أخرى أريد أن أتخلص من شك يساورنى بصددك ويجثم على صدرى .. بل ويكاد يفرق بينى وبينها ! »

كان السؤال صريحا ، قاسيا ، بحيث لم يكن فى طوق سانت بوف أن يتجنب الاجابة عليه .. لكنه تردد ، كمن يسائل نفسه عن مبلغ مايعرف هوجو من الأمر كله ؟ **كانت مدام هوجو قد أمست خليلته منذ زمن ، بل لقد رسخ فى ذهنه الاعتقاد بأنه هو والد الصغيرة أديل ، وليس هوجو !!**

— سأجيبك بصراحة أيها الصديق . منذ بضعة أشهر أحسست ازاء المرأة التى تتحدث عنها بعاطفة عميقة لا استطيع السيطرة عليها ، لكنها ليست من النوع الذى يسبب لك أى ازعاج . ان شكوكك لا اساس لها !

— أتستطيع أن تقسم على ذلك بشرفك ؟

— نعم

— هذا أمر يدخل على نفسى راحة كبرى ، ولكن ، هل لديك ما يبرر الظن ان المرأة التى تعنيها تبادلك عاطفتك ؟

— هذا سؤال ليس لى أن أجيب عليه ياهوجو .. فعليك أن توجهه اليها هى .. ولكن احذر من أن تحدث شكوكك وأسئلتك لها أى رد فعل ضار بك فى نفسيتها المرهفة !

كان « العشيق » الغادر يتكلم بلهجة خبث ود هوجو معها لو يصفع وجه « صديقه » المكتنز الذى تلمع بشرته بأفرازاتها الزيتية .. لكنه قمع رغبته .. بينما حدث الآخر نفسه شامتا فى

صديقــه المبلبل الفكر : « ان له من التفوق الجثمانى والأدبى والاجتماعى على شخصى مايبرر انتقامى الضئيل هــذا .. فامضى فى سبيلك يانفسى ! »

وافترق الصديقان ، على وعد من سانت بوف بالاقلال من زياراته لبيت هوجو ، بغية قمع تلك العاطفة الطارئة .. افترقا ولكن دون أن يتصافحا ، وقد ملأت الكراهية قلب كل منهما نحو الآخر ..!

عندما تضل الزوجة !

● وران على بيت أسرة هوجو الوجوم والكآبة . صارت ثرثرة ليوبولدين وشارل وفرانسوا أثناء تناول الطعام أعجز من أن تنتزع والدهم من شروده الصامت!.. بل انه لم يعد يراكم لهم الطعام فى صحافهم ويلح عليهم فى أن يأكلوا .. أما الزوجة الخائنة فكانت تبتسم أو تتجهم بصورة آلية ، وهى شــاردة الذهن تفكر فى عشيقها ، منكرة على نفسها هــذا الاحساس الذى يساورها بان « الشفقة » تلعب دورا كبيرا فى عاطفتها من نحوه !

كان سانت بوف قد نالها بفضل استغلاله الماكر لعطفها عليه ، من أجل عزوبته الموحشة وحرمانه من البيت والأسرة واحتماله عبء هواه اليائس الخانق نحوها!... أجاد تمثيل دور المذنب المعترف بذنبه ، الذى يحبها ويدرك أنه ليس أهلا لها : « انى قبيح الخلقة وأنت رائعة الحسن ! » ، وكانت مغازلاته حزينــة تفيض كآبة وانقباضا ، حتى لتستدر من المعشوقة الفاتنة دموع الاشفاق على العاشق المعــذب .. والدموع فى الخلوات تشعل بطبعها فى اللحم والدم نيران الرغبة المكبوتة.. التى أجاد سانت بوف فيما بعد تصويرها فى روايته الخبيثة

التى أطلق عليها « الشبق » Volupté

وأذعنت أديل لتوسلات الصديق الغادر واستجدائه ٠٠ فمنحته حبها « الأموى» المشوب بالاشفاق المحموم .. صارت تبذل له من اهتمامها بصحته « ونزلاته » ، وهندامه المهمل وثيابه البالية وجواربه المرتوقة ، بقدر ماتبذل لزوجها من اهمال متزايد لشأنه ولثيابه التى لم تعد تطيق أن تلمسها ! **بل لقد صارت تستسلم لقبلات زوجها بشفتين مغلقتين وقلب غارق فى اليأس ، وذهن منصرف عن هذا الذى يعانقها ، الى ذاك القابع فى مسكنه التعس غارقا وسط أكوام الكتب : سيدها الحقيقى ومولاها !**

— اديل ، لآخر مرة أسألك : أتحبين سانت بوف ؟

— نعم ، أحبه .. هل استراح خاطرك ؟

— كيف تمزحين فى صدد أمر كهذا ، فى حين انى أعانى عذابا مروعا ؟.. هل أسلمته نفسك ؟

- كلا ٠٠ لكن الرغبة فى ذلك لاتنقصنى !

- كيف يقسو قلبك على الى هذا الحد ؟

— وهل كنت أنت أقل قسوة على حين كنت تخوننى علانية مع الممثلات وفتيات الحوانيت والخادمات .. وكل امرأة تروق فى عينيك ؟

— انك تنسين أن لنا أربعة أطفال ، وأن ليوبولدين سوف تبلغ سن الزواج فى بضع سنوات .. أتريدين أن تفسدى مستقبل ابنتك ؟

— أو لم تفسد أنت شبابى ؟

— كيف أمكن أن الصديق الذى قاسمنى بيتى ٠٠ قد أمسى الآن عدوى ؟

— ليس هو عدوك يافيكتور ، بل قاضيك !

الخطاب الباكى

.. وبتكرار هذه المواقف الموجعة كل حين ، غدت الحياة جحيما بالنسبة للزوجين .. وبعد تردد طويل كتب هوجو الى سانت بوف بتاريخ ٦ يوليو سنة ١٨٣٤ خطابا يناشده فيه أن يرحل بعيـدا عن باريس ، ابقاء على البقية الباقيـة من صداقتهما الجريحة : **((عندما لانكون معنا أحس انى مواع بك ولعى القديم بعينه ·· أما حين تحضرفانى أعانى عذابا مروعا !··**

ان شيئا ماقد بات يفصل بيننا ، ولكم يؤلمنى أن أحس ذلك ونحن فى حجرة واحدة وعلى أريكة واحدة ، وفى وسع كل منا ان يلمس الآخر ·· لو كانت بيننا خمسمائة ميل لأمكن أن نزعم لأنفسنا أن الخمسمائة ميل هى التى تفصل بيننا .. ذلك هو السبب الذى يجعلنى أناشدك : اذهب !

« ان مجرد اضـطرارى لأن ألازمك كلمـا جئت الى بيتى ولا أدعك تغيب عن ناظرى ، هو مذكر دائم ومرير لى بأننا لم نعد صديقين . ياعزيزى المسكين سانت بوف ، ان فى حضورك نوعا من الغياب أمر من الغياب الحقيقى الف مرة !

« ألا دعنا نكف عن رؤية أحدنا الآخر فترة من الزمن ، كى لا نفقد شغفنا كلانا بالآخر نهائيا .. ان جرحى لم يلتئم بعد ، انه ينزف كلما رأيتك .. اننى أغدو تعسا فى وجودك ، ووجودك يثـيرنى : على نفسى ، وعليك ، وعلى الأخرى ، التى لعلهـا تشاركنى الآن رغبتى فى سفرك .. فمـا رأيك .؟ اكتب لى ما تراه .. ينبغى أن أتوقف عند هذا الحد ، فحاول أن تفهم خطابى هذا المضطرب . لقد تألمت وأنا أكتبه .. فلتحرقه كى لا يقرأه أحد ، بل كى لا تعود أنت فتقرأه ثانية يوما ما ·· ! ووداعا ..!

صديقك ، بل أخوك : فيكتور

اقرأ الجزء الثانى من هذا الكتاب فى ((كتابى)) القادم .. ومن فصوله : انتقام الزوج المخد[illegible] مغامرة مع فتاة الطـريق ـ الزوجة تفـكر فى الفرار مع عشيقها ، والزوج[illegible]ى بين أحضان « ممثلة » !.. الخ .

محتويات الكتاب

اضطررنا لاغفال نشر أحد الموضوعات التى ورد ذكرها فى غلاف هذا العدد لسبب قاهر


لذيذه
فواره
ببسى كولا
PEPSI-COLA
ببسى كولا
S.P.M.O.
معبأة بالشركة الوطنية المصرية لتعبئة الزجاجات ش.م.م

كتابي
الأول

محتويات الكتاب